al-Ghazzālī

Maʿārij al-quds

معارج القدس في مدارج معرفة النفس

تأليف

الامام الهمام حجة الاسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي
(المتوفى سنة ٥٠٥)

وتليها القصيدة الهائية — والقصيدة التائية له أيضاً

الطبعة الأولى سنة ١٣٤٦ هـ ١٩٢٧ م

على نفقة الرحالة البحاثة المنقب عن الاسفار النفيسة

محيي الدين صبري الكردي

مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مبدع الأرواح وخالق الجسد * وفاتح الأغلاق والعُقَد * ومانح الأعلاق (١) والعُدَد * ومن أنْفَسها الهُدى والرّشد * حمداً بعدد ما يتكرر من لحظات العيون ويتعدد * ويتجدد من أنفاس الصدور ويتردّد *

والصلاة والسلام على أكرم والدٍ وَوَلد * محمد وآله صلاة تبقى وتتأبد *

اعلم أن الله تعالى فتح بصائر أوليائه بالحِكم والعِبَر * واستخلص هممهم لمشاهدة عجائب صنعه فى البَدو والحضر * فكلما لاحظوا شيئاً لاحظوا فيه عبرة لأن جميع الموجودات مرآة للوجود الحق المحض * فالظاهر بذاته هو الله سبحانه وما سواه فآيات ظهوره ودلائل نوره *

وفى كل شىء له آية * تدل على أنه واحد

فكلما سنح لهم شىء فى مسارح النظر ومجارى الفِكر

---

(١) العلق بالكسر النفيس من كل شيء والجمع أعلاق *

عاجوا منه (١) الى جناب القدس حتى يتصلوا بمن هو شديد
القوى ذو مرّة فاستوى لم تغيره الأحوال بل علومه وكمالاته
حاصلة بالفعل وهو بالأُفق الأعلى * واذا سنح لهم هذا العروج
فلا يزالون فى دنوٍّ وقربٍ حتى يبلغوا الغاية القصوى فَيفيض
عليهم حقائق العلوم واسرار المعارف وغرائب الآيات فى
ملكوت الارض والسموات . واذا بلغوا هذا المنتهى فهو
السدرة المنتهى فلا يلتفتون الى شىء من عالم الزور * وعبّر
التنزيل عن هذه الحالة بقوله (علّمه شديد القوى ذو مرة
فاستوى وهو بالافق الاعلى ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين
أو أدنى فأوحى الى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى)
الى قوله (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) فينبغى لكل
عاقل أن يكون الله سبحانه وتعالى أول كل فكر له وآخره
وباطن كل اعتبار وظاهره فتكون عين نفسه مكحولة بالنظر
اليه وقدمه موقوفة على المثول بين يديه . مسافراً بعقله فى
الملكوت الاعلى وما فيها من آيات ربه الكبرى. فاذا انحط
الى قراره فليره فى آثاره فانه باطن ظاهر تجلى لكل شىء
بكل شىء . وأظهر الآثار التى يرى فيها جلالُ ذات الحق
وكمال صفاته انما هو معرفة النفس كما قال تعالى (سنريهم

---

(١) عطفوا عنان الطلب *

آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق * وفى الارض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون) وقال عليه السلام (من عرف نفسه فقد عرف ربه) وقال عليه السلام (أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه)

ونحن نعرج فى هذا الكتاب من مدارج معرفة النفس الى معرفة الحق جل جلاله. ونذكر مخّ مايؤدى اليه البراهين من حال النفس الانسانية ولبابَ ما وقف عليه البحث الشاف من أمرها وكونها منزهة عن صفات الاجسام ومعرفة قواها وجنودها ومعرفة حدوثها وبقائها وسعادتها وشقاوتها بعد المفارقة على وجه يكشف الغطاء ويرفع الحجاب ويدل على الأسرار المخزونة والعلوم المكنونة المضنون بها على غير أهلها * ثم اذا ختمنا فصول معرفة النفس فحينئذ ننعطف على معرفة الحق جل جلاله اذ جميع العلوم مقدمات ووسائل لمعرفة الاول الحق جل جلاله * وكل مايراد لشىء فدون حصول مقصوده يكون ضائعاً. فمن عرف نفسه فقد عرف ربه وعرف صفاته وأفعاله * وعرف مراتب العالم مبدعاته ومكوناته وعرف الملائكة ومراتبهم * وعرف لمة الملك ولمة الشيطان والتوفيق والخذلان * وعرف الرسالة والنبوة وكيفية الوحى وكيفية المعجزات والاخبار عن المغيبات * وعرف الدار الآخرة

وسعادتها وشقاوتها وأقسامها ولذة البهجة فيها* وعرف غاية السعادة التى هى لقاء الله تعالى . فمن يُسر له هذا السفر لم يزل فى سيره متنزها فى جنة عرضها السماوات والارض وهو ساكن بالبدن مستقر فى الوطن وهو السفر الذى يسفر فيه عن وجه المعرفة وتنحل أزرار الانوار فى هذه الاسفار وهو السفر الذى لا تضيق فيه المناهل والموارد ولا يضر فيه التزاحم والتوارد بل تزيد بكثرة المسافرين غنائمه* وتتضاعف ثمراته وفوائده * فغنائمه دائمة غير ممنوعة * وثمراته متزايدة غير مقطوعة* ومن لم يؤهل للجولان فى هذا الميدان والتطواف فى متنزهات هذا البستان فليس بيده الا القشر يأكل كما تأكل الانعام* ويرتع كما ترتع البهائم * وشرح هذا السفر وبيان هذا العلم العظيم القدر لا يمكن فى أوراق وأطباق ويقصر عن شرح عجائبه العبارات والأقلام . ونحن بعون الله تعالى وتوفيقه نشير الى كل واحدة من هذه الجمل على وجه يستقل به المتفطن ـ وأما الجامد البليد الذى يأخذ العلم بالتقليد فهو عن معرفة مثل هذه العلوم بعيد اذ كلٌّ ميسر لما خلق له . فمن رُشح للسعادة وشارف نيل الارادة اعطى أولا كمال الدرك من وفور العقل وصفاء الذهن وصحة الغريزة واتقاد القريحة وحدة الخاطر وجودة الذكاء والفطنة وجزالة

الرأى وحسن الفهم وهذه تحفة من الله وهدية لا تنال بيد الاكتساب* وتنبتر دونها وسائل الاسباب* ومن وهبت له هذه الفطنة فحينئذ عليه استكداد الفهم والاقتراح على القريحة واستعمال الفكر واستثمار العقل بتحديق بصيرته الى صوب الغوامض وحل المشكلات بطول التأمل وامعان النظر والاستعانة بالخلوة. وفراغ البال والاعتزال عن مزدحم الاشغال، والقيام بوظائف العبادات حتى يصل الى كمال العلوم وسمينا الكتاب «معارج القدس فى مدارج معرفة النفس» وفقنا الله لاتمامه*

﴿ فهرس الكتاب ﴾

ففي السؤال الأول ينكشف انه ليس كل مجرد كيفما كان عقلا بالفعل بل ما حصل له المعقولات دفعة *

وفى السؤال الثانى ينكشف أن النفس ما دامت ملابسة للبدن لا يحصل لها المعقولات كلها بل ما دام فى البدن لها استعداد بالنسبة الى مالم يحصل وهو عقل بالفعل بالنسبة الى ما حصل وكذلك بعد مفارقة البدن انما يكون عقلا بالفعل اذا لم يبق فيه من عوارض هذا العالم شيء فحينئذ يصير عالما عقلياً منتقشاً بجميع المعقولات كالنفوس الفلكية *

وفى السؤال الثالث ينكشف تفاوت النفوس فى قبول المعقولات واتصال الفيض الالهى بها تارة بالحدس وتارة بالفكر والنظر * وينكشف ان القوى البدنية تكون معينة فى الابتداء وعائقة فى الانتهاء *

وفى السؤال الرابع ينكشف أن النفس اذا أشرق عليها نور العقل الفعال تصير المقدمات الخيالية عقلية . وتنكشف العلوم كلها بواسطة المبادى وليس بيدنا تحصيل المعقولات بل التعرض لنفحات فضل الله ورحمته * وفى السؤال الخامس ينكشف أن النفس الانسانية تعقل المعقولات مرتبة * وكل ما فية تدريج وترتيب فليس بواحد من كل وجه وينكشف به أن الواحد الحق الذى يستحق الوحدانية هو الله تعالى

فحسب ـ ولهذا ليس له صفة منتظرة (١) ولا كذلك غيره *

وفى السؤال السادس يظهر أن الصورة المعقولة اذا اتصلت بالنفس فهى مدركة وهى ادراك ولا تحتاج الى ادراك آخر *

وفى السؤال السابع ينكشف أن النفس اذا قويت استغنت عن التفكر وتحصيل المقدمات ـ بل تتواتر عليها السكينات الالهية وتحصل لها المعقولات اليقينية دفعة عقيب تضرع واشتياق أو من غير تضرع وافتقار *

وفى السؤال الثامن يظهر أن النفس تدرك المعانى المجردة عن المواد سواء كانت كلية أو جزئية فتدرك نفسها وغيرها من النفوس المجردة وان كانت جزئية لأنها مجردة عن المادة وينكشف به سر عظيم وهو ان الحقيقة التى لنا لا يشاركنا فيها غيرنا من الحيوانات * ويظهر ان كونها معقولة ليس زائداً على كونها موجودة الوجود الذى لها بل بزيادة شرط على الوجود المطلق وهو أن وجود ماهيتها هى أنها معقولة حاصلة لها فى نفسها ليس لغيرها ـ وهذا فصل جليل يبتنى عليه معرفة صفات الحق جل جلاله *

وفى السؤال التاسع يظهر أنا اذا أدركنا العقول المفارقة

(١) بل مؤلف من هيولى وصورة من امكان ووجوب *

فصور حقائقها تكون أمثلة حقائقها ـ وكذلك يكون كل ادراك *

وفى السؤال العاشر ينكشف أنا ندرك ذاتنا بذاتنا لا بقوة أخرى جسمانية *

وفى السؤال الحادى عشر يظهر ان المانع عن التعقل هو المادة *

وفى السؤال الثانى عشر ينكشف أن كل شيء حقيقته الصرفة لا توجد متعينة بلوازم تتعين بها * ومن حيث انه ملزوم لوازم شتى فباللوازم تتعين *

وفى السؤال الثالث عشر ينكشف أنها بتعقل المعقولات لا تصير مركبة كالمرآة *

وفى السؤال الرابع عشر ينكشف وجه تأثير الطاعات والمعاصى والفضائل والرذائل فى النفس مع أن النفس مفارقة للبدن وهو فصل عظيم يبتنى عليه قواعد الشرع واتباع سنة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم *

ثم نذكر زيادة تبصرة يظهر فيها ان الفضائل والرذائل تنشأ من ثلاث قوى فى الانسان، قوة التخيل، وقوة الشهوة وقوة الغضب * ونذكر فى قوة التخيل أسراراً عجيبة يظهر منها الوحى . وفى مقابلته العرافة والكهانة * ونذكر منفعة قوة الشهوة ومضرتها * ومنفعة قوة الغضب ومضرتها *

ثم نذكر بيان أمهات الفضائل ونتائجها وثمراتها وما يندرج تحت كل واحدة منها من الفضائل والرذائل *

ثم نذكر مثال القلب بالاضافة الى العلوم * ثم بيان أمثلة القلوب مع الجنود أى قواها *

ثم نذكر أن هذه القوى كيف يرأس بعضها بعضاً وكيف يخدم بعضها بعضاً *

ثم نذكر أن الأرواح البشرية حادثة حدثت عند استعداد النطفة * ونورد على هذه اشكالات ونتفصى عنها ونذكر فى هذا الفصل حال البدء والاعادة * ونذكر فيه أسراراً من العلوم *

ثم نذكر بقاء النفس بعد المفارقة * ثم نذكر بيان اثبات العقل الفعال والعقل المنفعل فى النفوس الانسانية *

ثم نذكر قاعدة فى النبوة والرسالة وتلك القاعدة تشتمل على بيانات * بيان أن الرسالة هل تقتنص بالجد * وبيان أن الرسالة حظوة مكتسبة أم اثرة ربانية * وبيان اثبات الرسالة بالبرهان * وبيان خواص الرسالة والمعجزات * وبيان كيفية الدعوة وما يؤخذ من السمع ومالا يؤخذ * ويظهر فيها أصناف المعجزات وكرامات الأولياء * ونذكر خاتمة فى بيان ان أفضل نوع البشر من هو * ثم نذكر السعادة والشقاوة وهو علم المعاد *

ثم نذكر معنى اللقاء والرؤية * ثم ننعطف ونعرج عروجا ونرقى رقياً الى معرفة البارى جل جلاله ومعرفة صفاته وآفعاله ومعرفة ملائكته ومراتبهم ومعرفة الكرام الكاتبين وغير ذلك من المعارف كما أشرنا اليه فى أول الكتاب * ونأتى على فصل فصل الى ان نختم الكتاب * مستعينين بالله ومتوكلين عليه * ومستوفقين منه * والله ولى التوفيق بفضله ورحمته *

مقدمة

فى معانى الالفاظ المترادفة على النفس وهى أربعة ، النفس والقلب ، والروح ، والعقل *

أما النفس فتطلق بمعنيين ـ أحدهما أن يطلق ويراد به المعنى الجامع للصفات المذمومة وهى القوى الحيوانية المضادّة للقوى العقلية وهو المفهوم عند اطلاق الصوفية فيقال من أفضل الجهاد أن تجاهد نفسك واليه الاشارة بقول نبينا عليه السلام (أعدى عدوّك نفسك التى بين جنبيك)

والثانى أن يطلق ويراد به حقيقة الآدمى [١] وذاته فان

(١) يقول القونوى إن معنى النفس فى قوله من عرف نفسه فقد عرف ربه على هذا المعنى الثانى *

نفس كل شيء حقيقته وهو الجوهر الذى هو محل المعقولات
وهو من عالم الملكوت ومن عالم الامر على ما نبين * نعم
تختلف أسماؤها باختلاف أحوالها العارضة عليها . فان اتجهت
الى صوب الصواب ونزلت عليها السكينات الآلهيه وتواترت
عليها نفحات فيض الجود الالهى فتطمئن الى ذكر الله عزّ
وجل وتسكن الى المعارف الالهية وتطير الى أعلى أفق
الملكية فيقال نفس مطمئنة * قال الله تعالى (ياأيتها النفس
المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية) وان كانت مع قواها
وجنودها فى حِراب وقتال وشجار ونزاع وكان الحرب بينهما
سجالا فتارة لها اليد عليها وتارة للقوى عليها اليد فلا تكون
حالها مستقيمة . فتارة تنزع الي جانب العقول فتتلقّى المعقولات
وتثبت على الطاعات . وتارة تستولى عليها القوى فتهبط الى
حضيض منازل البهائم - فهذه النفس نفس لوّامة وهذه النفس
هى حالة أكثر الخلق فان من ارتفع الى أفق الملائكة حتى
تحلّى بالعلوم والفضائل النفسية والاعمال الحسنة فهو مَلك
جسمانى لارتفاعه عن الانسانية وعدم مشاركته للبشر إلا
بالصورة التخطيطية - ولهذا قال الله تعالي (ماهذا بشرا ان
هذا إلاّ ملك كريم)

ومن اتضع حتى صار فى حضيض البهائم فلو تُصُوّر كلب

أو حمار منتصب القامة متكلم لكان هو اياه لانسلاخه عن الفضائل الانسانية وعدم مشاركته للانسان الا بالصورة التخطيطية ـ وهذه هى النفس الامارة بالسوء *

فجلهم اذا فكرت فيهم * حمير أو كلاب أو ذئاب

وهو من الأنس المذكورين فى قوله تعالى (شياطين الأنس والجن يوحى بعضهم الي بعض زخرف القول غرورا) وقال أمير المؤمنين على رضى الله عنه «يا اشباه الرجال ولا رجال» فمثل هذه النفس تراه أبداً عبداً لحجر أو مدر أو بهيمة أو ظعينة (١) وهذا هو الذى أخبر الله سبحانه عنه فقال (إن النفس لأمارة بالسوء).

أما القلب فيطلق أيضاً بمعنيين ـ أحدهما اللحم الصنوبرى الشكل المودَع فى جوف الانسان من جانب اليسار، وقد عُرِف ذلك بالتشريح وهو مركب الدم الاسود ومنبع البخار الذى هو مركب الروح الطبي الحيوانى ـ وهذا يكون لجميع الحيوانات وليس بخاص للانسان وهو الذى يفنى بالموت جميع الحواس بسببه *

والثانى «وهو الذى نحن بصدد بيانه» هو الروح الانسانى المتحمل لأمانة الله المتحلي بالمعرفة المركوز فيه العلم

---

(١) الظعينة الهودج والمراد به المرأة فيه .

بالفطرة الناطق بالتوحيد بقوله بلى فهو أصل الآدمى ونهاية الكائنات فى عالم المعاد . قال الله تعالى (قل الروح من أمر ربى) وقال (ألا بذكر الله تطمئن القلوب)

وقال نبينا عليه السلام « إن قلوب بنى آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن » الي آخره * وحيثما ورد فى الشرع القلب فيراد به ما نحن بصدد بيانه وان أطلق فى موضع على اللحم الصنوبرى فلأنه متعلقه الخاص وأول متعلقه كما قال النبي عليه الصلاة والسلام « ان فى جوف ابن آدم لمضغة اذا صلحت صلح بها سائر الجسد واذا فسدت فسد بها سائر الجسد ألا وهى القلب »

أما الروح فيطلق ويراد به البخار اللطيف الذى يصعد من منبع القلب ويتصاعد الى الدماغ بواسطة العروق ومن الدماغ يسرى بواسطة العروق أيضا الى جميع البدن فيعمل فى كل موضع بحسب مزاجه واستعداده عملا وهو مَرْكَبُ الحياة فهذا البخار كالسراج ـ والحياة التى قامت به كالضوء وكيفية تأثيره فى البدن ككيفية تنوير السراج أجزاء البيت ويطلق ويراد به المبدَع الصادر من أمر الله تعالى الذى هو محل العلوم والوحى والالهام وهو من جنس الملائكة مفارق للعالم الجسمانى قائم بذاته على ما نبين *

ويطلق أيضاً ويراد به الروح الذى فى مقابلة جميع الملائكة وهو المبدع الأول وهو روح القدس *

ويطلق أيضاً ويراد به القرآن ـ وعلى الجملة فهو عبارة عما به حياة ما على الجملة *

أما العقل فيطلق ويراد به العقل الاول وهو الذى يُعَبَّر عنه بالعقل فى قول النبي صلى الله عليه وسلم « أول ماخلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر » أى أقبل حتى تستكمل بى وأدبر حتى يستكمل بك جميع العالم دونك وهو الذى قال الله تعالى له « وعزتى وجلالى ماخلقت خلقاً أعزّ علىّ ولا أفضلَ منك بك آخذ وبك أعطى » الحديث. وهو الذى يعبر عنه بالقلم كما قال عليه السلام « ان أول ماخلق الله القلم فقال له اكتب فقال وما اكتب قال ماهو كائن الى يوم القيامة من عملٍ وأثر ورزق وأجل فكتب مايكون وما هو كائن الى يوم القيامة »

والاطلاق الثانى أن يطلق ويرادَ به النفس الانسانية *

والاطلاق الثالث أن يطلق ويرادَ به صفة النفس وهو بالنسبة الى النفس كالبصر بالنسبة الى العين وهى بواسطته مستعدة لادراك المعقولات كما أن العين بواسطة البصر مستعدة لادراك المحسوسات وهو الذى قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم فيه عن ربه عز وجل «وعزتى وجلالى لأُسْكِنَنَّكَ فيمن أحببت » ونحن حيث أطلقنا فى هذا الكتاب لفظَ النفس والروح والقلب والعقل فنريد به النفس الانسانية التى هى محل المعقولات ـ هذه هى المقدمة *

﴿ بيان اثبات النفس على الجملة ﴾

والنفس أظهر من أن تحتاج الى دليل فى ثبوتها فان جميع خطابات الشرع تتوجه لاعلى معدوم بل على موجود حيٍّ يفهم الخطاب ولكن نحن نستظهر فى بيانه فنقول من المعلوم الذى لايرتاب فيه إن الاشياء مهما اشتركت فى شىء وافترقت فى شىء آخر فان المشترك فيه غير المفترق فيه و نصادف كافة الاجسام مشتركة فى انها أجسام يمكن ان يُفرض فيها ابعاد ثلاثة متقاطعة . ثم نصادفها بعد ذلك مفترقة بالتحرك والادراك فان كان تحركها لأجل جسميتها فينبغى أن يكون كل جسم متحركا لأن الحقائق لا تختلف (١) ومايجب لنوع يجب لجميع مايشاركه فى ذلك النوع وتلك الحقيقة . وان كان لمعنى وراء الجسمية فقد ثبت على الجملة مبدأ للفعل فذلك المبدأ هو النفس الى أن يتبين انه جوهر أو عرض * مثال ذلك أنا نرى الاجسام النباتية تغتذى وتنمو وتولد المثل وتتحرك حركات

---

(١) أى فى لوازم الحقيقة الواحدة *

مختلفة من التشعيب والتعريق. فهذه المعانى ان كانت للجسمية
فينبغى أن تكون جميع الأجسام كذلك * وان كانت لغير
الجسمية بل لمعنى زائد فذلك المعنى يسمى نفساً نباتية * ثم
الحيوان فيه ما فى النبات ويحس ويتحرك بالارادة ويهتدى
الى مصالح نفسه وله طلب لماينفع وهرب عما يضر * فنعلم قطعا
أن فيه معنى زائداً على الأجسام النباتية * ثم نجد الانسان فيه
جميع مافى النبات والحيوان من المعانى ويتميز بادراك الاشياء
الخارجة عن الحسّ مثل ان الكل أعظم من الجزء فيدرك
الجزئيات بالحواس الخمس ويدرك الكليات بالمشاعر العقلية
ويشارك الحيوان فى الحواس ويفارقه فى المشاعر العقلية فان
الانسان يدرك الكلّى من كل جزئى ويجعل ذلك الكلّى مقدمة
قياس ويستنتج منه نتيجة فلا الادراك الكلّى ينكرُ ولا
المدرِك لذلك يُجحد ولا العرض ولا الجسم القابل للعرض
ولا النبات ولا الحيوان غير الانسان يدرك الكلّى حتى يقوم
به الكلّى فينقسم بأقسام الجسم إذ الكلّى له وحدة خاصة من
حيث هو كلّى لاينقسم البتة فلا يكون للانسان المطلق الكلى
نصف وثلث وربع فقابل الصورة الكلية جوهر لاجسم
ولاعرض فى جسم ولاوَضْعَ له ولا اينَ له فيشار اليه بل وجوده
وجود عقلىّ أخفى من كل شىء عند الحسّ وأظهر من كل شىء للعقل

فثبت بهذا وجود النفس ، وثبت على الجملة أنه جوهر ، وثبت أنه منزّه عنِ المادة والصور الجسمانية *

﴿ تقسيم يظهر فيه مبادىء الأفعال ﴾

فنقول كلّ مبدأ يصدر منه فعل - فامّا أن يكون له شعور بفعله أو لم يكن فان لم يكن له شعور فاما أن يكون فعله متحداً على نسق واحد - وإما أن يكون مختلفا * وان كان له شعور فاما أن يكون له تعقل أو لم يكن * فان كان له تعقل فاما أن يكون فعله متحداً على نسق واحد - وإما أن يكون مختلفاً فهذه خمسة أقسام (١) فما كان فعله متحداً وليس له شعور فذلك المبدأ يسمى مبدأً طبيعياً كما فى الاجسام الثقيلة من الهبوط وفى الخفيفة من الصعود * وان كان فعله مختلفاً وليس له شعور فهو النفس النباتى فان النبات يتحرك حركات مختلفة * وان كان له شعور وليس له تعقل فهو النفس الحيوانى * وان كان له تعقل ومع التعقل اختيارٌ فى الفعل والترك فهو النفس الانسانى * وان كان له تعقل وفعله على نهج واحد غير مختلف فهو النفس الفلكىّ *

---

(١) وهى هذه (١) ماليس له شعور وفعله متحد (٢) ماليس له شعور وفعله مختلف (٣) ماله شعور ولم يكن له تعقل (٤) ماله شعور وتعقل وفعله متحد (٥) ماله شعور وتعقل وفعله مختلف

﴿ رسوم النفوس الثلاثة ﴾

فنرسم النفوس الثلاثة برسومها فان شرائط الحد الحقيقي متعذر الوجود ههنا بل وفى كل الموجودات *

فنقول أما النفس النباتية فهى الكمال الأول (١) لجسم طبيعى آلى من جهة مايغتذى وينمو ويولد المثل *

وأما النفس الحيوانية فهى الكمال الأول لجسم طبيعى آلي من جهة مايدرك الجزئيات ويتحرك بالارادة *

وأما النفس الانسانية فهو الكمال الأول لجسم طبيعى آلى من جهة مايفعل الأفاعيل بالاختيار العقلى والاستنباط بالرأى ومن جهة مايدرك الأمور الكلية *

وقولنا الكمال الأول أى من غير واسطة كمال آخر لأن الكمال قد يكون أولا وقد يكون ثانيا *

وقولنا لجسم طبيعى أى غير صناعى لا فى الأذهان بل فى الأعيان *

وقولنا آلى أى ذى آلات يستعين بها ذلك الكمال الأول فى تحصيل الكمالات الثانية والثالثة * ولفظ الكمال أولى من لفظ القوة لأن القوة تكون بالنسبة الى مايصدر عنها من

---

(١) قال ارسطاطاليس النفس كمال أول لجسم طبيعى آلى ذى حياة بالقوة *

الأفعال أو بالقياس الى ما تقبله من الصور المحسوسة والمعقولة واطلاق لفظ القوة عليهما يكون باشتراك الاسم فيكون الحد مشتملا على لفظ مشترك وان عُنِيَ بالحدّ أحدهما كان الحد ناقصاً

ولفظ الكمال يشمل القوتين بالتواطؤ فهو أولى * فان قيل إنه صورة كان ذلك بالاضافة الى المادة التى تحلّها فيجتمع منهما جوهر نباتى أو حيوانى *

ولفظ الكمال بالقياس الى جملة الجواهر ولاستكمال الجنس به نوع محصّل فى الانواع وهو نسبة الخاص الى الشىء العام الغير البعيد من جوهره فهو أولى من لفظ الصورة ويجب أن يعلم أنه اذا قيل نفس «أى اطلق» على صورة الفلك وعلى صورة النبات والحيوان والانسان فانما يقال باشتراك الاسم فان النفوس الفلكية ليست تفعل بآلات ولا الحياة فيها حياة التغذى والنمو ولا احساسها احساس الحيوان ولا نطقها نطق الانسان *

﴿ بيان أن النفس جوهر وذلك ثابت من جهة الشرع والعقل ﴾

أما الشرع فجميع خطابات الشرع تدل على أن النفس جوهر وكذلك العقوبات الواردة فى الشرع بعد الممات تدل على أن النفس جوهر فان الألم وان حل بالبدن فلأجل النفس * ثم للنفس عذاب آخر يخصه وذلك كالخزى والحسرة وألم الفراق

وكذلك مايدل على بقائه على ماسنبين فيما بعدُ إن شاء الله تعالى

أما من حيث العقل فمن وجهين، وجهٌ عام يمكن اثباته مع كل أحد، ووجه خاص يتفطّن له أهل الخصوص والانصاف

أما الأول فهو أن يعلم أن حقيقة الانسان ليس عبارة عن الجسم فحسب فانه انما يكون انسانا اذا كان جوهراً وأن يكون له امتداد فى أبعاد تفرض طولا وعرضا وعمقا ـ وأن يكون مع ذلك ذا نفس ـ وأن تكون نفسه نفسا يغتذى بها ويحسّ ويتحرّك بالارادة ومع ذلك يكون بحيث يصلح لأن يتفهم المعقولات ويتعلم الصناعات ويعملها إن لم يكن عائق من خارج لا من جهة الانسانية فاذا التأم جميع هذا حصل من جملتها ذات واحدة هى ذات الانسان ـ فاذاً ثبت بهذا أن حقيقة الانسان لا تكون عرَضا لأن الأعراض يجوز أن تتبدل والحقيقة بعينها باقية فان الحقائق لا تتبدل ـ فاذاً ما هو ثابت فيك مذ كنتَ فهو نفسك وما يطرأ عليك ويزول فهو الاعراض *

وأما الوجه الثانى وهو البيان الخاص فهو الذى يصلح لأهل الفطانة ومن فيه لطف الفهم والاصابة فهو انك اذا كنتَ صحيحاً مطّرحا عنك الآفات مُجَنَّباً عنك صدمات الهوى وغيرها من الطوارق والآفات فلا تتلامس أعضاؤك ولا تماس أجزاؤك وكنت فى هواء طلق (أى معتدل) ففى

هذه الحالة أنت لا تغفل عن إنيّتك وحقيقتك بل وفى النوم أيضاً فكل من له فطانة ولطف وكياسة يعلم أنه جوهر وانه مجرد عن المادة وعلائقها وانه لا تعزب ذاته عن ذاته لأن معنى التعقل حصول ماهية مجردة للعاقل وذاته مجردة لذاته فلا يحتاج الى تجريد وتقشير وليس ههنا ماهية ثم معقولية بل ماهيته معقوليته، ومعقوليته ماهيته * وهذه نكتة نفيسة عظيمة وستقف عليها ان شاء الله أشرح من هذا *

ثم الدليل على صحة هذا البيان الخاص أنه لو لم يكن المدرك والمشعور به هو حقيقتك أى نفسك بل يكون هو البدن وعوارضه لكان لا يخلو إمّا أن يكون الشعور به جملة بدنك أو بعضه وبطل أن تكون الجملة لأن الانسان فى الفرض المذكور قد يكون غافلا عن جملة البدن وهو مدرك نفسه * وان كان بعضا منه فلا يخلو إما أن يكون ظاهراً أو باطنا. فان كان ظاهراً فهو مدرك بالحسّ والنفس غير مدركة بالحس كيف ونحن فى الفرض المذكور قد أغفلنا الحواس عن أفعالها وفرضنا أن الأعضاء لا تماس وان كان النفس والذات عضواً باطناً من قلب أو دماغ فلا يجوز أيضاً لأن الأعضاء الباطنة انما يوصل اليها بالتشريح فثبت أن مُدرَكك ليس شيئاً من هذه الأشياء فانك قد لا تدركها وتدرك ذاتك ضرورة فما أُلجئتَ الى ادراكه

ضرورة لا يكون قطعاً مالا يدرك إلا بالنظر فاذاً ثبت بهذا أن ذاتك ليس من عداد ماتدركه بالحس أو مما يشبه الحس بوجه من الوجوه *

﴿ زيادة ايضاح من جهة الادراك ﴾

فنقول إنك تدرك فى جميع الأحوال ذاتك فبما ذا تدرك فانه لابد من مدرك فلا يخلو إما أن يكون أحدَ مشاعرك ظاهراً أو عقلك أو قوة غير مشاعرك فان كان عقلك فلا يخلو إما أن يكون ذلك الادراك بوَسَطٍ أو بقياس أو بقوة متوسطة بين الادراك والنفس أو بغير وسط * وما أظنك تفتقر فى ذلك الى وسط فانه لو كان ثَمّ وسط لما أدركتَ ذاتك فانه لا وسَطَ بين ذاتك وشعورك بذاتك فبقى أن تدرك بغير وسطٍ واذا كان كذلك فلا يخلو إما أن يكون ذلك الادراك بمشاعرك أو بذاتك ولا يتصور أن يكون بمشاعرك فان الحواس لا تدرك إلا الأجسام وما يتعلق بالأجسام من الالوان والنغمات وغير ذلك فبقى أنك تدرك ذاتك بذاتك فمن هذا ثبت أنك جوهر مفارق *

وهذا البيان الخاص إما ضائع وإما قاطع ضائع للمغفلين الذين لم يلحظوا إلا بعين السخط فان من يلحظ مقدمة بعين

السخط كان الشك أسرع اليه من الماء الى الحدور (١) أما للمستبصرين فهو قاطع *

فان قال قائل إنما أُثبتُ ذاتى بوسط وذلك الوسط هو فعل من أفعالى فأستدل بافعالى على وجود النفس *

فالجواب عن هذا من وجهين (أحدهما) أن هذا لايتمشّى فى الفرض المذكور فانا جعلناك بمعزل عن الافعال ومع هذا تُثبت ذاتكَ وأيدّتك (والثانى) ان هذا الفعل إماأن تثبته فعلا مطلقاً فيجب أن تثبت به فاعلا مطلقالا نفسك وان أثبتّه فعلك وخصصته بالاضافة فقد أثبتَ أولا نفسكَ وأدركت أولاً ذاتك فانك أخذتَ ذاتك جزأً من فعلك والشعور بالجزء قبل الشعور بالكل أولا أقل من أن يكونَ معه فذاتك اذاً مثبتة معه أوقبله لا به ـ وهذا فصل لطيف يبتنى عليه باب من المعرفة شريف كما سنذكران شاء الله تعالى

﴿ بيان أن النفس ليس لها مقدار ومساحة ولا تدرك حسّاً ولا يدركها جسم وأنّ إدراكها لا يكون بآلات جسمانية فى حال ﴾

وهذا أدق وأعصى على الأذهان الزائغة عن الجادة الآلفة بالخيالات والموجودات الحسية * ولنا أن نتوسل الى هذا المقصود ببراهين قاطعة ودلائل واضحة *

---

(١) أى انحدار الماء *

البرهان الأول أن نقول معلوم إنا نتلقى المعقولات
وندرك الأشياء التي لاتدخل فى الحس والخيال والمعقول
متحد فلو حل فى منقسم لانقسم المتحد وهذا محال وتحقيقه
هو أنه لوكان النفس ذا مقدار وحل فيه معقول فاما أن يحل
فى شيء منقسم أو فى شيء غيرمنقسم ومعلوم أن غير المنقسم
انما هوطرف الخط وهو نهاية مالا تميزلها فى الوضع عن الخط
والمقدار الذى هى متصلة به حتى يستقر فيهاشيء من غيرأن يكون
فى شيء من ذلك الخط بل كما أن النقطة لاتنفرد بذاتها وانما هى
طرف ذاتى لما هو بالذات مقدار كذلك انما يجوز أن يقال
بوجه ما أنه يحل فيها طرف شيء حال فى المقدار الذى هى طرفه
متقدر بالعرض فكما أنه يتقدر به بالعرض كذلك يتناهى
بالعرض مع النقطة ولو كانت النقطة منفردة تقبل شيئا من
الاشياء لكان يتميز لها ذات وكانت النقطة حينئذ ذات جهتين
جهة منها تلى الخط وجهة منها مخالفة له مقابلة فتكون حينئذ
منفصلة عن الخط وللخط نهاية غيرها يلاقيها فتكون تلك
النقطة نهاية الخط لا هذه * والكلام فيها وفى هذه النقطة
واحد * ويؤدى هذا الى أن تكون النقطة متشافعة فى الخط
إما متناهية. وإما غير متناهية وهذا أمر قد بان فى موضعه
استحالته ونشير الى رمز منه فنقول * إن النقطتين حينئذ اللتين

تطبّقان بنقطة واحدة من جنبتيها – إما أن تكون هذه النقطة المتوسـطة تحجز بينهما فلا تماسَّان فيلزم حينئذ فى البديهة العقلية الأولية أن يكون كل واحده منهما يختص بشىء من الوُسْطَى يماسه فتنقسم حينئذ الوسطى وهذا محال – وإما أن تكون الوسطى لا تحجز المكتنفتين عن التماس فحينئذ تكون الصـورة المعقولة حالة فى جميع النقط وجميع النقط كنقطة واحدة ، وقد وضعنا هذه النقطة الواحدة المنفصلة عن الخط فللخط من جهة ماينفصل عنها طرف ونهاية بها ينفصل عنها فتلك النقطة تكون مباينة لهذه فى الوضع *

وقد وُضِعَتْ النقط كلُّها مشتركة فى الوضع هذا خاف فقد بطل اذاً أن يكون محل المعقولات من الجسم شيئاً غير منقسم فبقى أن يكون من الجسم شيئامنقسما فلنفرض صورة معقولة فى شىء منقسم فاذا فرضنا فى الشىء المنقسم انقساماً عرض للصورة أن تنقسم فحينئذ لايخلو إما أن يكون الجزءان متشابهين أوغير متشابهين فان كانا متشابهين فكيف يجتمع منهما ماليس بهما إلا أن يكون ذلك الشىء شيئا يحصل فيهما من جهة المقدار والزيادة فى العدد لامن جهة الصورة فتكون حينئذ الصورة المعقولة شكلاً مّا أوعدداً مّا وليس كل صورة معقولة شكلا * وتصير حينئذ الصورة خيالية لاعقلية *

وأظهر من ذلك أنه ليس يمكن أن يقال إن كل واحد
من الجزأين هو بعينه الكل فى المعنى لأن الثانى اذا كان غير
داخل فى معنى الكل فيجب أن نضع فى الابتداء لمعنى الكل
هذا الواحد لا كليهما وان كان داخلا فى معناه فمن البين الواضح
أن الواحد منهما وحده ليس يدل على نفس معنى التمام * وان
كانا غير متشابهين فلينظر كيف يمكن أن تكون الصورة
المعقولة أجزاء غير متشابهة فانه ليس يمكن أن تكون الاجزاء
الغير المتشابهة إلا أجزاء الحد التى هى الأجناس والفصول
ويلزم من هذا محالات منها أن كل جزء من الجسم يقبل
القسمة أيضاً فيجب أن تكون الأجناس والفصول بالقوة
غير متناهية * وقد صح أن الأجناس والفصول الذاتية للشىء
الواحد ليست فى القوة غير متناهية ولأنه ليس يمكن أن
يكون توهم القسمة يفرز الجنس والفصل بل مما لا نشك فيه
أنه اذا كان هناك جنس وفصل يستحقان تميزاً فى المحل أن
ذلك التميز لا يتوقف على توهم القسمة فيجب أن تكون الأجناس
والفصول بالفعل أيضاً غير متناهية ـ وقد صح أن الأجناس
والفصول أو أجزاء الحد للشىء الواحد متناهية من كل وجه
ولو كانت غير متناهية بالفعل ههنا لكانت توجب أن يكون
الجسم الواحد انفصل بأجزاء غير متناهية بالفعل وأيضاً لتكن

القسمة وقعت من جهة فأفرزت من جانب جنسا ومن جانب فصلا فلو غيرنا القسمة كان يقع منها فى جانب نصفُ جنس ونصفُ فصل – أوكان ينقلب وكان فرضنا الوهمى يدور مقام الجنس والفصل فيه على أن ذلك أيضا لايغنى فانه يمكننا أن نوقع قسما فى قسم * وأيضا كل معقول يمكن أن يقسم الى معقولات أبسط فان ههنا معقولات هى أبسط المعقولات ومبادىء التركيب فى سائر المعقولات فليس لها لا أجناس ولافصول ولا هى منقسمة فى الكم ولا هى منقسمة فى المعنى كالوحـدة والعلة وغير ذلك * فاذاً ليس يمكن أن تكون الاجزاء المفروضة فيه أجزاء متشابهة كل واحد منها هو فى معنى الكل وانما يحصل الكل بالاجتماع فقط ولا أيضا يمكن أن تكون غير متشابهة فليس يمكن أن تنقسم الصورة المعقولة فاذا كان ليس يمكن أن تنقسم الصورة المعقولة ولا أن تحل طرفا من المقادير غير منقسم تبين أن محل المعقولات جوهر ليس بجسم ولا أيضا قوة فى جسم فيلحقه مايلحق الجسم من الانقسام ثم يتبعه سائر المحالات *

البرهان الثانى أن نقول القوة العقليـة هو ذات تجرد المعقولات عن الكم المحدود والأين والوضع وسائر عوارض الجسم فيجب أن ننظر فى ذات هذه الصورة المجردة عن الوضع

كيف هى مجردة عنه ـ أبا القياس الى الشىء المأخوذ منه أوبالقياس الى الشىء الآخذ أعنى هذه الذات المعقولة تجرد عن الوضع فى الوجود الخارجى أو فى الوجود المتصور فى الجوهر العاقل ، ومحال أن يكون كذلك فى الوجود الخارجى فبقى أن يكون انما هو مفارق للوضع والأين عند وجوده فى العقل فاذاً اذا وجدت فى العقل لم تكن ذات وضع وبحيث يقع اليها اشارة تجزؤ وانقسام أو شىء مما أشبه هذا المعنى فلا يمكن أن يكون فى جسم *

البرهان الثالث اذا انطبعت الصورة الأحدية الغير المنقسمة التى لأشياء غير منقسمة فى المعنى فى مادة منقسمة ذات جهات فلا يخلو إما أن لا تكون لها ولا لشىء من أجزائها التى تفرض فيها بحسب جهاتها نسبة الى الشى المعقول الواحد الذات الغير المنقسم المتجرد عن المادة أو تكون تلك النسبة لكل واحد من أجزائها التى تفرض أو تكون لبعضها دون بعض فان لم يكن لشىء منها نسبة فليست لبعضها ولا لكلها لامحالة نسبة فينبغى أن لا تدرك وأن لا يكون بين هذا المعقول ومعقول آخر فرق وليس كذلك فانا نجد تفرقة ضرورية وان كان لبعضها دون بعض نسبة فالبعض الذى لانسبة له ليس هو من معناه فى شىء . ويلزم أن يكون الشىء

الواحد مجهولا ومعقولا بالقياس الى البعضين - وهذا محال وإن كان لكل جزء يفرض نسبة - فاما أن تكون لكل جزء يفرض نسبة الى الذات المعقول بأسرها أو الى جزء من الذات المعقول فان كان لكل جزء يفرض الى الذات بأسرها نسبة فليست الأجزاء اذاً أجزاء معنى المعقول بل كل واحد منها معقول فى نفسه مفرد * وان كان كل جزء له نسبة غير نسبة الآخر الى الذات فمعلوم أن الذات منقسمة فى المعقول وقد وضعناها غير منقسمة - هذا خلف * ومن هذا تَبَيَّن أن الصورة المنطبعة فى المادة لاتكون إلا اشباحا لأمور جزئية منقسمة لكل جزء منها نسبة بالفعل أو بالقوة الى جزء منها *

فان قيل منشأ التلبيس فى هذا البرهان قولكم إن المعنى المعقول ان كان له نسبة الى بعض الذات فيكون البعض الآخر ليس من معنى المعقول فى شىء ونحن هكذا نقول فان المدرك منا هو جزء وذلك الجزء لاينقسم وهو المسمى بالجوهر الفرد *

قلنا أنتم بين أمرين - إما أن تقولوا نسبة المعقول الى بعض منقسم - أو الى بعض غير منقسم فان كان نسبته الى بعض منقسم فاذا قسمنا يلزم انقسام المعقول ويعود البرهان الأول بعينه وان قلتم ينتسب الى جزء لاينقسم فكل جزء من الجسم منقسم

وقد برهنا على ذلك ، وله براهين هندسية ليس ههنا موضع ذكرها *

البرهان الرابع أن نقول إن القوة العقلية لو كانت تعقل بالآلة الجسدانية حتى يكون فعلها انما يستتم باستعمال تلك الآلة الجسدانية لكان يجب أن لا تعقل ذاتها وان لا تعقل الآلة وان لا تعقل انها عقلت فانه ليس بينها و بين ذاتها آلة وليس بينها وبين آلتها آلة ولا بينها وبين أنها عقلت آلة لكنها تعقل ذاتها و آلتها والتي تدعى آلتها وانها عقلت فاذاً تعقل بذاتها لا بالآلة * وأيضا لا يخلو إما أن يكون تعقلها آلتها إما لوجود ذات صورة آلتها وإما أخرى مخالفة لها وهي صورة أيضاً فيها وفى آلتها أو لوجود صورة أخرى غير صـورة آلتها تلك فيها فان كانت لوجود صورة آلتها فصورة آلتها فى آلتها بالشركة دائماً فيجب أن تعقل آلتها دائما التي كانت تعقل لوجود صورة آلتها وان كان لوجود صورة غير تلك الصورة فان المغايرة بين أشياء تدخل فى حد واحد إما لاختلاف المواد والأعراض وإما لاختلاف ما بين الكلي والجزئى والمجرد عن المادة والوجود فى المادة وليس ههنا اختلاف مواد وأعراض فان المادة واحدة والأعراض واحدة وليس ههنا اختلاف بالتجريد والوجود فى المادة فان كليهما فى المادة وليس ههنا اختلاف الخصوص والعموم لأن

أحدهما انما يستفيد الجزئية بسبب المادة الجزئية واللواحق التى تلحقها من جهة المادة التى فيها وهذا المعنى لا يختص باحدهما دون الآخر * وأما ذات النفس فانها تدرك دائما وجودَها لا شيئا من الأجسام التى معها وفيها ولا يجوز أن يكون لوجود صورة أخرى معقولة غير صورة آلتها فان هذا أشد استحالة لأن الصورة المعقولة اذا حلت الجوهر العاقل جعلته عاقلا لما تلك الصورة صورته أو لما تلك الصورة مضافة اليه فتكون صورة المضاف داخلة فى هذه الصورة وهذه الصورة المعقولة ليست صورة هذه الآلة ولا أيضا صورة شىء مضاف اليها بالذات لأن ذات هذه الآلة جوهر ونحن انما نأخذ ونعتبر صورةَ ذاته والجوهر فى ذاته غير مضاف البتة - فهذا برهان عظيم على أنه لا يجوز أن يدرك المدرك للآلة التى هى آلته فى الادراك ولهذا فان الحس انما يحس شيئا خارجيا ولا يحس ذاته ولا فعله ولا آلته ولا احساسه وكذلك الخيال لا يتخيل ذاته ولا فعله ولا آلته بل إن تَخَيّلَ آلتَه تخيّلها لا على نحو يخصه بأنه لامحالة له دون غيره الا أن يكون الحس يورد عليه صورة آلته لو أمكن فيكون حينئذ انما يحكى خيالا مأخوذاً عن الحس غير مضاف عنده الى شىء حتى لو لم تكن آلته كذلك لم يتخيله *

البرهان الخامس مركب من مجموع دلائل واضحة وشواهد لائحة من أحاط بها علما يقينيا تيقن قطعا أن النفس ليست بجسم ولا تحلّ الأجسام *

وطريقه أن تقول إن النفس لو كانت جسما فلا يخلو إما أن تكون حالّةً فى البدن أو خارجةَ البدن فان كانت خارجة البدن فكيف تؤثر وتصرّف فى هذا الجسم وكيف يكون قوام البدن بها وكيف تتصرّف فى المعارف العقلية فى الملك والملكوت فتعرف الأول الحق وتسافر فى العرفان العقلىّ وتستوفى المعقولات فى ذاتها : وان كانت حالّةً فى البدن فلا يخلو إما أن تكون حالّةً بجميع البدن أو ببعضه فان كانت حالّةً بجميع البدن فكان ينبغى اذا قطع منه طرف أن تنتقصَ أو تنزوىَ وتنتقل من عضو الى عضو فتارةً تمتدّ بامتداد الأعضاء وتارة تتقاصّ بذبول الأعضاء ـ وهذا كله محال عند من له غريزة صحيحة وفطنة مستقيمة طاهرة عنْ شوائب الخيال ، وان كانت حالّة فى بعض البدن فذلك البعض منقسم إما بالفعل أو بالفرض فينبغى أن تنقسم النفس الى أن تنتهى بالأقسام الى أقل شىء وأحقره ـ وهذا معلوم إحالته على البديهة فكيف يكون كذلك حال النفس التى هى محل المعارف وبه شرف الانسان على جميع الحيوانات وهو المستعد للقاء الله تعالى وهو

المخاطب وهو المثاب وهو المعاقب وهو الذى اذا زكّاه الانسان أفلح واذا دسّاه خاب وخسر وهو خلاصةُ الموجودات وزُبْدَةُ الكائنات فى عالم العود وهو الذى يبقى بعد موت البدن وهو الذى ان كان متحليّا بالمعارف وصل الى السعادة الأبدية فرحا مستبشراً بلقاء الله تعالى *قال الله تعالى (أحياء عند ربهم يُرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله) فمن كان له أدنى مُسْكة من العقل يعلم أن الجوهر الذى هذا محلّه ومنزلته لايكون حالاً فى البدن ولا يكون جزأً من البدن لادَمٌ ولابخار ولا مزاج ولا غيره *وأيضاً فانك تعلم أن نفسك مذ كنتَ لم تتبدّل ومعلوم أن البدن وصفات البدن كلّها تتبدّل إذ لولم تتبدّل لكان لايغتذى لأن التّغذّى ان يحلَّ بالبدن بدل ماتحلّل فاذاً نفسك ليس من البدن وصفاته فى شيء *

وأيضاً لوكانت النفس الانسانية منطبعة فى البدن لكان ضْعف فعلها مع ضَعف البدن لكنها لاتضعف مع ضعف البدن فثبت أنها غير منطبعة فيه *ودليل عدم الضعف المشاهدة فان بعد الأربعين تكون القوة البدنية فى انحطاط والقوة العقلية فى الزيادة والارتفاع *

وأمّا الذى يتوهم من أن النفس تنسى ولا تفعل فعلها مع مرض البدن وعند الشيخوخة وان ذلك بسبب أن فعلها

لايتم إلا بالبدن فظن غير ضرورى ولاحق وذلك انه بعد ماصح لنا أن النفس تفعل بذاتها يجب أن يطلب السبب فى هذا فان كان قد يمكن أن يجتمع أن للنفس فعلاً بذاتها وانها أيضاً تترك فعلها مع مرض البدن ولاتفعل من غير تناقض فليس لهذا الاعتراض اعتبار *

فنقول إن النفس له فعلان فعل له بالقياس الى البدن وهو السياسة، وفعل بالقياس الى ذاته والى مبادئه وهو التعقل وهما متعاندان متمانعان فانه اذا اشتغل باحدهما انصرف عن الآخر ويصعب عليه الجمع بين الأمرين، وشواغله من جهة البدن الأحساس والتخيّل والشهوات والغضب والخوف والغم والوجع: وأنت تعلم هذا بأنك اذا أخذت تفكّر فى معقول تعطّل عليك كل شىء من هذه إلاّ أن تغلب وتقسر النفس بالرجوع الى جهتها *

وأنت تعلم أن الحسّ يمانع النفس عن التعقل اذا أكبّت على المحسوس من غير أن يكون أصاب آلة التعقل أو ذاتها آفة بوجه: وتعلم أن السبب فى ذلك هو اشتغال النفس بفعل دون فعل فلهذا السبب مايتعطل أفعال العقل عند المرض ولو كانت الصورة المعقولة قد بطلت وفسدت لأجل الآلة لكان رجوع الآلة الى حالها يحوج الى اكتساب من الرأس

وليس الأمر كذلك فانه قد يعود النفس الى ملكتها وهيأتها عاقلة بجميع ماعقلته بحاله فقد كانت اذاً كلها معها إلا أنها كانت مشغولة عنه وليس اختلاف جهتى فعل النفس فقط يوجب فى أفعاله التمانع بل تكثر أفعال جهة واحدة قد يوجب هذا بعينه فان الخوف يُغْفِل عن الوجع: والشهوة تصدّ عن الغضب والغضب يصرف عن الخوف والسبب فى جميع ذلك واحد وهو انصراف النفس بالكلية الى أمر واحد وكلها قوى النفس الواحدة وهى ملكها والقوى رعيتها وجنودها فاذاً ليس يجب اذا لم يفعل شيء فعله عند اشتغاله بحالة لشيء أن لا يكون فاعلاً فعله إلا عند وجود ذلك الشيء *

ولنا أن نتوسع فى بيان هذا الباب لأن هذا الباب من من أصعب أبواب النفس إلا أنه بعد بلوغ الكفاية تنسب الازدياد الى تكلف مالا نحتاج اليه: فقد ظهر من اصولنا التى قررنا أن النفس ليست منطبعة فى البدن ولا قائمة به فيجب أن تكون علاقتها مع البدن علاقة التدبير والتصرف والله تعالى ولى الهداية والتوفيق *

﴿ بيان القوى الحيوانية ﴾

والقوى الحيوانية تنقسم الى محركة ومدركة: والمحركة إما أن تكون محركة على أنها باعثة على الفعل أوعلى أنها فاعلة

والباعثة إما أن تكون على جذب النفع أو على دفع الضرّ والباعثة على جذب النفع هو الذى يعبّر عنه بالشهوة وهو الذى اذا أُرْتُسِمَ في الخيال معنى يُعلم أنه خير عنده أو يُظَنُّ يبعث القوة الفاعلة على جذب ذلك النفع *

وأما الباعثة على دفع الضر فهى التى يعبر عنها بالغضب وهى القوة التى اذا ارتُسِمَ فى الخيال مايعلم أو يظن أنّه يضر تبعَثُ على تحريك يدفع به ذلك الضرر أو المؤذى طلباً للانتقام والغلبة *

وأما القوة المحركة على أنها فاعلة فهى قوة تنبعث فى الأعصاب، والعضلات من شأنها أن تشنّج العضلات فتجذب الأوطار والرباطات المتّصلة بالأعضاء الى نحو جهة المبدأ أو ترخيها فتصير الأوطار والرباطات الى خلاف جهة المبدأ وهذه القوة هى التى يعبر عنها بالقدرة، والباعثة هى الإرادة *

وتحرير هذا هو أن كل فعل اختيارى يدخل فى الوجود فلا يدخل مالم يأت اليه رسول القدرة وهو ذلك المعنى المودَع فى العضلات ، والقدرة لا تنبعث من وطنها ومكامنها بل كأنها فى دعة ورفاهية مالم يأت اليها رسول الإرادة أما ارادة جذب النفع أو ازالة الأذى والدفع والارادة لا تنتهض من مكانها ولا تخرج من مكامنها مالم يأت اليها رسول العلم فاذا أتى وجزم

الحكم انبعثت الإرادة ولا تجد بدًّا من الانقياد والاذعان
واذا جزمت الارادة الحكم انبعثت القدرة لتحريك الاعضاء
فلا تجد محيصاً وخلاصاً من الإمتثال والارتسام بموجب
رسمها : واذاجزمت القدرة الحكم تحركت الأعضاء بحيث
لاتجد محيصاً من الحركة : فادام رسول العلم متردّداً تكون
الارادة متردّدةً : ومادامت الارادة مترددة تكون القدرة
مترددة : ومادامت القدرة مترددة فالأفعال لاتدخل فى الوجود
ولا تظهر على الأعضاء : فاذا اتصل الحكم الجزم وجدت الافعال *

* زيادة تحقيق *

اعلم أن الحركة الاختيارية التى هى خاصية الحيوان لها
مبدأ ووسط وكمال - أما المبدأ فحاجة الناقص الى الكمال
واشتياق الطالب - وأما الكمال فنيل المطلوب وبينهما وسط
وهو السلوك الطلبي : فالحركات الاختيارية التى للحيوان هى
حركات مكانية فعلية الى جهات مختلفة «عن علم وشعور وطلب»
بخلاف حركات النبات فانها لما كانت غير اختيارية توجهت
الى جهات مختلفة من غير علم وشعور وطلب للخير : وحركاتها
تكون حركة النمو والذبول والحركات الاختيارية للانسان حركات
فكرية وحركات قولية وحركات فعلية وانما جهات اختلافها
بخلاف حركات الحيوان فانها عدمت قسمين منها وهى الفكرية

والقولية : والحركة النباتية احتاجت الى حسن تعهد وتشذيب حتى تصل الى كمالها المطلوب وهو الثمرة وتوليد المثل *

أما الثمرة فللانتفاع بشخصه ـ وأما توليد المثل فللانتفاع بنوعه فلا يخلو وجوده فى الكون عن نفع جزئى بشخصه وعن نفع كلّى بنوعه *

والحركة الحيوانية احتاجت أيضاً الى حسن رعاية وتسخير حتى تصل الى كمالها المطلوب وهو الانتفاع بشخصه حملاً وركوباً وأكلاً وحراثة والانتفاع بنوعه سوماً وتوليداً وانتاجاً فلا يخلو وجوده فى الكون عن نفع جزئى بشخصه وعن نفع كلى بنوعه *

وأما الحركة الانسانية فاحتاجت الى حسن عناية وتكليف بتأييد وتسديد وتعريف فان الحركة الفكرية يدخلها حق وباطل فيجب أن يختار الحق دون الباطل : والحركات القولية يدخلها صدق وكذب فيجب أن يختار الصدق دون الكذب : والحركات الفعلية يدخلها خير وشر ويجب أن يختار الخير دون الشر ولن يتحقق هذا الاختيار إلا من تأييد وتسديد وتعريف *

فأما التأييد فيظهر أثره فى الافعال حتى يختارَ من الحركات الفعلية الخير ويترك الشر ـ وأما التسديد فيظهر أثره فى

الأقوال حتى يختار من الحركات القولية الصدق ويترك الكذب ـ وأما التعريف فيظهر أثره فى الأفكار حتى يختار من الحركات الفكرية الحق ويترك الباطل *

وإنما هذه المراتب الثلاثة مقدرة على المراتب الثلاثة العلوية التى يعبر عنها تارة بالملائكة المؤيدين، وتارة بالجدود الروحانيين ، وتارة بالحروف والكلمات فى عليين : وكما أن الحركات النباتية احتاجت الى تشذيب والحركات الحيوانية الى تهذيب كذلك احتاجت الحركات الانسانية الى تأديب *

ومن صفت اختياراته فى حركاته الثلاث عن شائبة الباطل والكذب والشر من كل وجه فهو الذى يحق له أن يقول «أدّبنى ربّى فأحسن تأديبى» وهو الذى يستحق أن يؤدب غيرَه ويهذّبَ ويزكّى ويطهر ويعلّم ويذكّر لقوله تعالى (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتابَ والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون) *

* بيان القوى المدركة *

وهي منقسمة بالقسمة الأولي قسمين مدركة من ظاهر ومدركة من باطن : والمدركة من الظاهر تنقسم خمسة أقسام وهى الحواس الخمس فنذكرها ونذكر كيفية تأديتها الى الحس المشترك *

اعلم أن أول الحواس اتصالا بالحيوان وأعمّها لجميع الحيوانات وأسراها فى بدن الحيوان هى حاسّة اللمس وهى قوة مبثوثة فى جميع بشرات الحيوان ولحمه وعرقه وعصبه يُدرك بها الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والصلابة والرخاوة واللّين والخشونة والخفة والثقل: والحامل لها جسم لطيف فى شباك العصب يسمّى روحا ويستمدّ من القلب والدماغ. وشرط ادراكه أن يستحيل كيفية البشرة إلى ضدّ المدرك من الحرارة والبرودة وغيرهما حتى يصير مُدركا ولذلك لايدرك إلاماهو أبرد منه أوأسخن أوأخشن أوألين، والمثل قلمّايدرك. والمدركات مختلفة وهى مع اختلافها تستند الى مدرك واحد * وعندقوم قوة اللمس جنس لأربعة أنواع «من القوى» «إحداها» حاكمة فى التضاد بين الحار والبارد «والثانية» حاكمة فى التضاد بين الرطب واليابس «والثالثة» حاكمة فى التضاد بين الصُّلب واللين «والرابعة» حاكمة فى التضاد بين الخشن والأملس وربما يزيدون على ذلك وهى (١) الطّليعة الأولى للنفس ولا يخلو جزء من البشرة عن قوة اللمس ولايوجد حيوان إلا وفيه قوة اللمس *

---

(١) أى قوة اللمس *

﴿ والحكمة فى القوة اللمسية ﴾

هى أن الحكمة الالهية لما اقتضت أن يكون حيوان يتحرك بالارادة مركباً من العناصر وكان لا يؤمن عليه اضرار الأمكنة المتعاقبة عليه عند الحركة أُيِّدَ بالقوة اللمسية حتى يهرب بها من المكان الغير الملائم ويقصد بها المكان الملائم *

ثم يليها من الحواس حاسّة الشم : ولما كان مثله من الحيوانات لا تستغنى جبلته عن التغذى وكان اكتسابه للغذاء بتصرف ارادىّ وكان من الأطعمة ما لا يوافقه ومنها ما يوافقه أُيِّدَ بالقوة الشمّية : اذا كانت الروائح تدل الحيوان على الأغذية الملائمة دلالةً قوية *

وحاسة الشم قوة مبثوثة فى زائدتى الدماغ كحلمتى الثدى ويدرك بها الروائح المختلفة الطيبة منها والكريهة : والحامل لها أيضاً جسم لطيف فى الحلمتين والممدّ لها الهواء اللطيف لا على أنه ينقل الرائحة من المتروّح الى الحاسّة فقط بل على أنه يستحيل اليه بالمجاورة كما يستحيل بمجاورة النار والبرد * والهواء بلطافته أسرع قبولا للروائح منه للحرارة والبرودة وهذه القوة فى الحيوانات أشدّ وأكثر * وأول ما يتصل بالجنين بعد قوة اللمس هو قوة الشم ـ ولهذا تُحفظ الأمّ عن الروائح الكريهة وأن لا تشم شيئاً من المطعومات إلا أكلته

حتى لا يظهر خلل فى الجنين؛ وقد يظنّ أن النملة تحس بحس الشم حبًّا من الحبوب فتخرج من البيت فتطلبه وتصل اليه وان كان من وراء جدار وليس ذلك شمًّا مجرداً بل هو حسّ وقوة فى حسٍّ وكيف لا والمطلوب ربما لا تكون له رائحة وقد يعبر كثيراً عن الحس بالشم وفى الخبر «الأرواح جنود مجنّدة تَشامُّ كما تشامّ الخيل فما تعارف منها إئتلف وما تناكر منها اختلف» وانما المراد بالتشامّ الاحساس *

أما حاسة الذوق فهى أيضاً طليعة تَعرِف الطعوم الموافقة والمنافية وهى قوة مرتبة فى العصب المفروش على جرم اللسان تُدرِك الطعومَ المتحلّلة من الأجرام المماسة لها المخالطة للرطوبة العذبة التى فيه مخالطةً مُحيلةً فانها تأخذ طعم ذى الطعم وتستحيل اليه وربما تُحيله اليها وكلما اتصل الطعم بذلك العصب أدركه العصب وهى التى تتلو الشم وتتصل هذه القوة بالجنين بعد قوة الشم فتظهر فيه عند الولادة فيتحرك الجنين ويحرّك لسانه ويلعق نفسه بنفسه *

أما حاسة البصر ووجه منفعتها فان الحيوان المتحرك بالارادة لما كان تحركه الى بعض المواضع كمواقد النيران وعن بعض المواضع كقلل الجبال وشطوط البحار ربما يؤدى الى الاضرار به أوجبتِ العناية الالهيّة اعطاء القوة المُبْصِرَة

فى أكثر الحيوان وهى قوة مرتبة فى العصبة المجوّفة تدرك صورة ماينطبع فى الرطوبة الجليدية من أشباح الأجسام ذوات اللون المتأدية فى الاجسام الشفّافة بالفعل الى سطوح الأجسام الصقيلة *

ولا تظن أنه ينفصل من المتلوّن شيء ويصل الى العين ولا أن ينفصل من العين شعاع فيمتد الى المتلون لكن يحدث صورةً فى الصقيل المستعد لقبول الصورة بشرط المقابلة المخصوصة وتوسط الشفاف فاذا حصلت الصورة فى الجليدية أفضت الى العصبة المجوفة التى فيها روح هو جسم لطيف مثل ماتقع الصورة على الماء الراكد فيفضى الى ملتقى الأنبوبتين المتصلتين بالعينين في مقدمة الدماغ فيدرك الحس المشترك من الصورتين المتحدتين صورة واحدة وإلا كان يجب أن يرى شيئين إذ الصورة فى الجليدية صورتان: ولما كانت الرطوبة الجليدية كريّة والذى يقابل من سطح الكرة انما يقابلها بالمركز على خطوط موهومة خارجة من السطح الى المركز فحيثما قربت المسافة بين الرائى والمرئى كانت الخطوط أكثر والشكل المخروط منها الى المركز أقصر والزاوية أكبر: وحيثما بعدت المسافة كانت الخطوط أقل والشكل المخروط منها الى المركز أطول والزاوية أصغر وذلك بسبب رؤية البعيد صغيراً والقريب على هيئته *

وأما حاسة السمع فهى قوة مرتبة فى العصب المتفرق فى سطح الصماخ تدرك صورة ما يتأدى اليه بتموّج الهواء المنضغط من قرع أوقلع انضغاطاً بعنف يحدث منه صوت يتأدى الى الهواء المحصور الراكد فى تجويف الصماخ ويحركه بشكل حركته فتماس الأمواج المختلفة تلك العصبة فتتأدى بها الى الحس المشترك *

وقيل إن تلك العصبة مفروشة فى أقصى الصماخ ممدودة مدّ الجلد على الطبل إلا أنها على دقة نسج العنكبوت وصلابة الجلد المدبوغ *

وقيل إنها أعصاب كأوتار العود ممدودة فى جوانب الصماخ وتحرك تلك لأوتار بتحرك الهواء الراكد فيه فيحصل منه طنين وانما يتحرك على ترتيب تعاقب الحروف والأصوات واختلافها فى الرفع والخفض والخفة والثقل والدقة والغلظ وكما أن الضياء شرط فى الأبصار كذلك الهواء في السمع *

والسمع انما يسمع من محيط الدائرة: والبصر انما يبصر على خط مستقيم على أن تلك الخطوط المستقيمة تخرج من المحيط وتصل الى المركز من الكرة المدورة حتى ظن ظانون أن تلك الخطوط أشعة منبعثة من البصر الى القاعدة أو صور مقبوضة من القاعدة الي البصر: وكلا الوجهين خطأ كما ذكرناه *

والقوة السامعة تلى المبصرة فى النفع ووجه منفعتها أن الأشياء الضارة والنافعة قد تُستدل عليها بخاصّ أصواتها فأوجبت العناية الالهية وضع القوة السامعة فى أكثر الحيوان على أن منفعة هذه القوة فى النوع الناطق من الحيوان تكاد تفوق الثلاث *

وأما القوى المدركة من باطن فتنقسم بالقسمة الأولى ثلاثة أقسام: منها مايدرك ولا يحفظ: ومنها مايحفظ ولا يعقل ومنها مايدرك ويتصرف* ثم المدرك إما أن يدرك الصورة أو المعنى: والحافظ إما أن يحفظ الصورة أو المعنى: والمتصرف تارة يتصرف فى الصورة وتارة فى المعنى: والمدرك تارة يكون له ادراك أوّلى من غير واسطة وقد يكون له ادراك ولكن بواسطة مدرك آخر *

والفرق بين الصورة والمعنى أن الصورة نعنى بها فى هذا المقام مايدركه الحس الظاهر ثم يدركه الحس الباطن والمعنى هو الذى يدركه الحس الباطن من غير أن يكون للحس الظاهر فيه مدخل - فهذه تقاسيم المدركات على الجملة *

أما تفصيلها وبيان اثباتها ومحالها فالمدرك للصورة هو الحس المشترك ويسمى بِنْطَاسيْا وخازنه الخيال، والمدرك المعنى القوة الوهمية وخازنها الحافظة والذاكرة والذى يدرك

ويعقل هو القوة المتخيلة ومالا يعقل ماذكرناه من الوهم والحس *

أما بيان اثباتها فهو بحسب الوجدان: أما اثبات الحس المشترك فهو أنك تبصر القطر النازل خطاً مستقيما والنقطة الدائرة بسرعة خطاً مستديراً كله على سبيل المشاهدة لا على سبيل التخيل ولوكان المدرك هو البصر الظاهر لكان يرى القطر كما هو عليه والنقطة كما هى عليها فانه لا يدرك إلا المقابل النازل وذلك ليس بخط: فعلمنا أن ثم قوة أخرى ارتسم فيها هيئة مارأى أولا وقبل أن تمحى تلك الهيئة لحقتها أخرى وأخرى فرآها خطاً مستقيما أو خطاً مستديراً والدليل عليه أنه لو أديرت النقطة لا بسرعة لترى نقطاً متفرقة فعندك إذاً قوة قبل البصر اليها يؤدى البصر مايشاهده وعندها تجتمع المحسوسات فتدركها وكذلك الانسان يحس من نفسه أنه اذا أبصر شخصاً أوسمع كلاماً أدرك المبصر شخصاً واحداً وأدرك المسموع كلاماً واحداً وما فى العين عنده شخصان أعنى شبحين فى العينين وكلامين فى الأذنين فعلم يقيناً أن محل الادراك أمر وراء العينين والأذنين فالقوة المدركة لهما قوة واحدة اجتمعت عندها الصورتان أعنى الشبحين فى العينين على اتفاقهما والمدركان أعنى المبصر والمسموع على اختلافهما فتلك القوة

مجمع المماثلات والمختلفات فسميناها الحس المشترك إذلا تكون النفس مُدْرِكةً إلا بهذه القوة وسميناها اللّوح إذ لاتجتمع المحسوسات إلا فى هذه القوة وليس لها إلا الادراك فقط وانما يكون الارتسام والحفظ لقوة أخرى : ومن خواص هذه القوة استحضار المحسوسات فى الحواس أولا ثم إدراكها ثانيا: ومن خواصها انها تدرك الجزئيات الشخصية دون الكليات العقلية : ومن خواصها انها تحس باللذة والألم من المتخيلات كما تحس بالألم واللذة من المحسوسات الظاهرة *

وأما بيان القوة الخيالية فانا نعلم أنا اذا رأينا شيئاً وغبنا عنه أوغاب عنا بقيت صورته فينا كأنانشاهدهاونراها فهى تحفظ مُثُلَ (١) المحسوسات بعد الغيبوبة وبهاتين القوتين يمكنك أن تحكم أن هذا الطعم لغير صاحب هذا الكون(٢) وان لصاحب هذا الكون هذا الطعم فان القاضى بهذين الحكمين لايمكنه القضاء مالم يحضره المقضى عليهما *

وأما بيان القوة الوهمية فان الحيوانات ناطقها وغير ناطقها تدرك من الاشخاص الجزئية المحسوسة معانى جزئية غير محسوسة كما تدرك الشاة أن هذا الذئب عدوّها والعداوة والمحبة غير محسوستين وتحكم عليهما كما تحكم على المحسوس

(١) المثل جمع مثال (٢) وفى نسخة هذا اللون *

فعلمنا أن هذه لقوة أخرى وللقوة الوهمية فى الانسان أحكام خاصة منها حَمْلُها النفسَ أن تمنع وجود أشياء لا تتخيل ولا ترتسم فى الخيال مثل الجواهر العقلية التى لا تكون فى حيّز ومكان : ومنها اثبات الخلاء محيطاً بالعالم : ومنها موافقة المبرهن على تسليم المقدمات ثم مخالفته فى النتيجة *

وقد قيل إن القوة الوهمية هى الرئيسة الحاكمة فى الحيوان حكما ليس فصلا كالحكم العقلى ولكن حكما تخيّليّا مقرونا بالأشياء الجزئية والصور الحسّية وعنها يصدر أكثر الأفعال الحيوانية *

وأما بيان القوة الحافظة فانا نعلم أنا إذا أدركنا المعانى الجزئية لا تغيب عنا بالكلية فانا نتذكرها ونستحضرها بأدنى تأمّل فعلمنا أن لهذه المعانى خازنا يحفظها فتلك هى الحافظة مادامت باقية فيها فاذا غابت واستعادت فهى الذاكرة ونسبة الحافظة الى المعانى كنسبة المصوِّرة الى المحسوسات المتصوَّرة فى الحس المشترك *

وأما بيان قوة التخيل فانا نعلم أنا يمكننا أن ندرك صورة ثم نفصّل ونركّب ونزيد وننقص وندرك معنى فنلحقه بالصورة فهذا التصرف لغير ماذكر من القوى : ومن شأن هذه القوة أن تعمل بالطبع عملا منتظما أو غير منتظم وانما ذلك

لتستعملها النفس على أىّ نظام تريده ولو لم يكن كذلك لكان أمراً طبيعياً غير مفتنٍّ : ولما كان للانسان أن يتعلم الصناعات المختلفة والنقوش العجيبة والخطوط المنظومة ليكون مطبوعا على فعل واحد كسائر الحيوانات فهذه القوة تستعملها النفس فى التركيب والتفصيل تارة بحسب العقل العملى وتارة بحسب العقل النظرى وهى فى ذاتها تركّب وتفصّل ولا تدرك : واذا استعملتها النفس فى أمر عقلى سمّيت مفكّرة واذا أكبّت على فعلها الطبيعى سميت متخيلة والنفس تدرك مار كّبه وتفصله من الصور بواسطة الحس المشترك وما تركبه من المعانى بواسطة القوة الوهمية *

وأما محالّ هذه القوى فاعلم أن هذه قوى جسمانية فلابد لها من محال جسمانية خاصة واسم خاص فالحس المشترك آلتها ومحلها الروح المصبوب فى مبادىء عصب الحس لاسيما فى مقدم الدماغ *

وأما القوة المصوّرة وتسمى الخيال فآلتها الروح المصبوب فى البطن الأول من الدماغ ولكن فى جانبه الأخير *

وأما القوة الوهمية فمحلها وآلتها الدماغ كله ولكن الأخص بها التجويف الأوسط لاسيما فى جانبه الأخير *

وأما القوة المتخيلة فسلطانها فى الجزء الأول من

التجويف الأوسط وكأنها قوة مّا للوهم وبتوسط الوهم للعقل

وأما البواقى من القوى وهى الذاكرة والحافظة فسلطانها في حيّز الروح الذى فى التجويف الأخير وهو آلتها وانما هدى الناس الى القضاء بأن هذه هى الآلات وانها مختلفة المحال بحسب اختلاف القوى وأن الفساد اذا اختص بتجويف أورث الآفة فيه : ثم اعتبار الواجب فى حكمة الصانع الحكيم تعالى أن يقدم الأقنص للجرمانى ويؤخر الأقنص للروحانى ويقعد المتصرف فيهما حكما واسترجاعا للمُثُل المنمحية عن الجانبين فى الوسط : جلّت قدرته *

﴿ بيان القوة الانسانية خاصة ﴾

أما النفس الانسانية الناطقة فتنقسم قواها أيضاً الى قوة عاملة والى قوة عالمة وكل واحدة من القوتين تسمى عقلا باشتراك الاسم فالعاملة قوة هى مبدأ تحريك لبدن الانسان الى الأفاعيل الجزئية الخاصة بالرّوية على مقتضى آراء تخصها اصطلاحية ولها اعتبار بالقياس الى القوة الحيوانية النزوعية : واعتبار بالقياس الى القوة الحيوانية المتخيلة والمتوهمة : واعتبار بالقياس الى نفسها : وقياسها الى القوة الحيوانية النزوعية أن يحدث منها فيها هيئات تخص الانسان يُهيأ بها لسرعة فعل وانفعال مثل الخجل والحياء والضحك والبكاء وما أشبه ذلك *

وقياسها الى القوة الحيوانيـة المتخيلة والمتوهمة هو أن تستعملها فى استنباط التدابير فى الأمور الكائنة والفاسدة واستنباط الصنائع الانسانية وقياسها الي نفسها أن فيما بينها وبين العقل النظرى يتولد الآراء الذائعة المشهورة مثل إن الـكذبَ قبيح والظلم قبيح والصدق حسن والعدل جميل وعلى الجملة جميع تفاصيل الشريعة فهو تفصيل هذه المشهورات المتولدة بين العقل النظرى والعملى ـ وهذه القوة هى التي يجب أن تَتَسلّط على سائر قوى البدن على حسب ماتوجبه أحكام القوة التى نذكرها حتى لا تنفعل عنها البتة بل تنفعل هى عنها وتكون مقموعة دونها لئلا يحدث فيها عن البـدن هيئات انقيادية مستفادة من الأمور الطبيعية وهى التى تسمى رذائل الأخلاق بل يجب أن تكون غير منفعلة البتة وغير منقادة بل متسلطة مستولية فتكون لها فضائل الأخلاق *

وقد يجوز أن تنسب الأخلاق الى القوى البدنية أيضاً ولـكن إن كانت هى الغالبـة يكون لها هيئة فعلية ولهذه هيئة انفعالية فيكون شيء واحد يحدث منه خُلقٌ فى هذا وخلق فى ذلك وان كانت هى المغلوبة تـكون لها هيئـة انفعالية ولهذا هيئة فعلية غير غريبة ويكون الخلق واحداً وله نسبتان وانما كانت الأخلاق عنـد التحقيق لهذه القوة

لأن النفس الانسانية كما ظهر جوهر واحد وله نسبة وقياس الى جنبتين جنبة هي تحته وجنبة هى فوقه وله بحسب كل جنبة قوة تنتظم بها العلاقة بينه وبين تلك الجنبة *

فهذه القوة العملية هى القوة التى لها بالقياس الى الجنبة التى دونها هى البدن وسياسته *

وأما القوة النظرية فهى القوة التى بالقياس الى الجنبة التى فوقها لتنفعل وتستفيد منها وتقبل عنها فكأنّ للنفس منا وجهين وجه الى البدن ويجب أن يكون هذا الوجه غير قابل البتة أثراً من جنس مقتضى طبيعة البدن ووجه الي المبادىء العالية والعقول بالفعل . ويجب أن يكون هذا دائم القبول عما هنالك والتأثر منـه وبه كمال النفس : فاذاً القوة النظرية لتكميل جوهر النفس :والقوة العملية لسياسة البدن وتدبيره على وجه يفضى به الى الكمال النظرى (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه)

وأما القوة النظرية فهى قوة من شأنها أن تنطبع بالصور الكلية المجردة عن المادة فان كانت مجردة بذاتها فذاك وان لم تكن فانها تصيّرها مجردة بتجريدها إياها حتى لا يبقى فيها من علائق المادة شيء وسنوضح هذا بعد *

وهذه القوة النظرية لها الى هذه الصور نِسَبٌ وذلك

أن الشيء الذى من شأنه أن يقبل شيئاً قد يكون بالقوة قابلا له وقد يكون بالفعل : والقوة تقال على ثلاثة معان بالتقديم والتأخير *

فيقال قوة للاستعداد المطلق الذى لا يكون خرج منه شيء بالفعل ولا أيضاً حصل مابه يخرج وهذا كقوة الطفل على الكتابة *

ويقال قوة لهذا الاستعداد اذا كان لم يحصل إلاما يمكن به أن يتوصل الى اكتساب الفعل بلا واسطة كقوة الصبي الذى ترعرع عرف الدواة والقلم وبسائط الحروف على الكتابة *

ويقال قوة لهذا الاستعداد اذا تم بالآلة وحدث معه أيضاً كمال الاستعداد بان يكون له أن يفعل متى شاء بلا حاجة الى الاكتساب بل يكفيه أن يقصد فقط كقوة الكاتب المستكمل للصناعة * اذا كان لا يكتب * والقوة الأولى تسمى قوة مطلقة هيولانية: والقوة الثانية تسمى قوة ممكنة وملكة: والقوة الثالثة كمال القوة فالقوة النظرية إذاً تارة تكون نسبتها الى الصور المجردة التى ذكرناها نسبة ما بالقوة المطلقة وذلك متى تكون هذه القوة للنفس لم تقبل بعد شيئاً من الكمال الذى بحسبها وحينئذ تسمى عقلا هيولانيا وهذه

القوة التى تسمى عقلا هيولانيا موجودة لكل شخص من النوع ولكن على السواء وفيها ترتب وتفاضل : فيه خلاف بين الحكماء *

وانما سميت هيولانية تشبيها بالهيولى الأولى التى ليست بذاتها ذات صورة من الصور وهى موضوعة لكل صورة: وتارة نسبة مابالقوة الممكنة وهى أن تكون الهيولانية قد حصل فيها من المعقولات الأولى التى يتوصّل منها الى المعقولات الثانية أعنى بالمعقولات الأولى المقدمات التى بها يقع التصديق لابالاكتساب ولا أن يشعر بها المصدّق أنه كان يجوزله أن يخلو عن التصديق بها وقتاً البتة مثل اعتقادنا أن الكل أعظم من الجزء أوأن الأشياء المساوية لشىء واحد متساوية وهذه هى التى تسمى العلوم الضرورية فمادام انما حصل فيه من العقل هذا القدر فقط يسمى عقلا ممكنا أو عقلا بالملكة: ويجوزأن تسمى عقلا بالفعل بالنسبة الى الأولى وقد تكون أقوى من ذلك بأن يكون قد حصل له من المعقولات النظرية بحيث يمكنه أن يتوصل بها الى المعقولات الثانية :ويجوزأن تكون نسبةمابالقوة الكمالية وهوأن يكون قد حصل فيها أيضاً الصور المعقولة المكتسبة بعد المعقولة الأولية إلا أنه ليس يطالعها ويرجع اليها بالفعل بل كأنها

عنده مخزونة فمتى شاء طالع تلك الصورة بالفعل وعقلها وعقل
أنه عقلها وتسمى عقلا بالفعل لأنه يعقل متى شاء بلا اكتساب
تكلف وتجشم وإن كان يجوز أن تسمى عقلا بالقوة بالقياس
الى مابعده *

وتارة تكون نسبته نسبة ما بالفعل المطلق وهو أن تكون
الصورة المعقولة حاضرة فيه وهو يطالعها بالفعل ويعقلها بالفعل
ويعقل أنه يعقلها بالفعل فيكون حينئذ عقلا مستفاداً وهذا
هو العقل القدسىّ * وانما سمى مستفاداً لانه سيتضح أن العقل
بالقوة انما يخرج الى الفعل بسبب عقل هو دائم الفعل وانه
اذا اتصل به العقل بالقوة نوعا من الاتصال انطبع فيه بالفعل
نوع من الصورة تكون مستفادة من خارج فهذه أيضاً
مراتب القوى التى تسمى عقلا نظرية : وعند العقل المستفاد
يتم الجنس الحيوانى والنوع الانسانى وهناك تكون القوة
الانسانية تشبهت بالمبادىء الأولية للوجود كله : وسيأتى
زيادة شرح للعقل المستفاد القدسى فى النبوة *

﴿ بيان اختلاف الناس في العقل الهيولانى ﴾
« الذى هو الاستعداد المطلق »

إعلم أن الحكماء اختلفوا فى هذا الاستعداد هل هو
متشابه فى جميع أشخاص النوع أم مختلف * فقالت جماعة

إنها متشابهة فى هذا الاستعداد وانما الاختلاف راجع الى استعمال ذلك الأمر المستعد فى نوع من العلم دون نوع فيخرج الى الفعل فيظهر الاختلاف *

وقالت جماعة إنها (١) مختلفة الاستعداد على حسب اختلاف الأمزجة وما يخرج منها الى الفعل فانما يخرج ذلك على حسب ذلك الاستعداد وليس حكمها حكم الهيولى فى أنها قابلة لكل صورة فان الهيولى الأولى قابلة للصورة الأولى وهى الجسمية وهى متشابهة فى جميع الأجسام ثم تقبل بواسطتها صورة صورةً على حسب تركّبها من الصورة الثانية والهيولى الثانية ولهذا لم يكن للهيولى الأولى وجود فى ذاتها دون الصورة الأولى ولا للجسم المطلق وجود دون أن يكون إما ناراً أو هواء أو غير ذلك ، والأمر ههنا بخلاف ذلك فان النفس لها وجود محقق واستعداد لذلك الوجود فيجب أن يكون مختلفاً بحسب اختلاف الموضوع *

وإن قيل إن النفس الانسانية متشابهة فى النوع وسلم ذلك فلا شك أنها مختلفة فى الشخص والعين بحسب اختلاف العوارض المشخّصة فيختلف الاستعداد فى العقل الهيولانى على حسب ذلك فان النفس انما تفيض من المبادىء على قدر

---

(١) أى الأشخاص *

الاستعداد فكلما كان المزاج أعدل كانت النفس أشرف
وينضاف اليه طوالع الكواكب واجرام السماوات فاذاً كما
أن النفس وان كانت متحدة فى النوع فبينها تفاضل وترتب
فكذلك الاستعداد مترتب على شرف النفس فربّ نفس
نبيّ يستغنى عن الفكرة يكاد زيتها يضيء ولولم تمسه نار: ورب
نفس غبيّ لايعود عليه الفكرُ بِرادّة وهذا الرأى أقوى
وأقرب الى مناهج الشرع *

﴿ بيان أمثلة مراتب العقل من الكتاب الالهى ﴾

اعلم أن الله تعالى ذكر هذه المراتب فى آية واحدة
فقال (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها
مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درّى يوقد
من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية يكاد زيتها
يضيء ولولم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء
ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم)

فالمشكاة مثل للعقل الهيولانى فكما أن المشكاة مستعدة
لأن يوضع فيها النور فكذلك النفس بالفطرة مستعدة لأن
يفيض عليها نور العقل ثم اذا قويت أدنى قوة وحصلت لها
مبادىء المعقولات فهى الزجاجة فان بلغت درجة تتمكن من
تحصيل المعقولات بالفكرة الصائبة فهى الشجرة لأن الشجرة

ذات أفنان فكذلك الفكرة ذات فنون فان كانت أقوى وبلغت درجة الملكة فان حصل لها المعقولات بالحدس فهي الزيت فان كانت أقوى من ذلك فيكاد زيتها يضيء : فان حصل له المعقولات كأنه يشاهدها ويطالعها فهو المصباح: ثم اذا حصلت له المعقولات فهو نور على نور نور العقل المستفاد على نور العقل الفطري: ثم هذه الأنوار مستفادة من سبب هذه الأنوار بالنسبة اليه كالسرج بالنسبة الى نار عظيمة طبقت الأرض فتلك النار هي العقل الفعال المفيض لأنوار المعقولات على الأنفس البشرية وان جعلت الآية مثالاً للعقل النبوي فيجوز لأنه مصباح يوقد من شجرة أمريّة مباركة نبويّة زيتونة أُمّيّة لاشرقية طبيعية ولاغربية بشرية يكاد زيتها يضيء ضوء الفطرة وان لم تمسسه نارُ الفكرة نور من الأمر الربُّوبي على نور من العقل النبوي يهدي الله لنوره من يشاء *

﴿ بيان تظاهر العقل والشرع وافتقار أحدهما الى الآخر ﴾

اعلم أن العقل لن يهتدي إلا بالشرع والشرع لم يتبين إلا بالعقل فالعقل كالأسّ والشرع كالبناء ولن يغني أسّ مالم يكن بناء ولن يثبت بناء مالم يكن أسّ *

وأيضاً فالعقل كالبصر والشرع كالشعاع ولن يغني البصرُ مالم يكن شعاع من خارج ولن يغني الشعاع مالم يكن بصر

فلهذا قال تعالى (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور بأذنه) *

وأيضاً فالعقل كالسراج والشرع كالزيت الذى يمده فما لم يكن زيت لم يحصل السراج وما لم يكن سراج لم يضىء الزيت وعلى هذا نبّه الله سبحانه بقوله تعالى (الله نور السموات والأرض) الى قوله (نور على نور) فالشرع عقل من خارج والعقل شرع من داخل وهما متعاضدان بل متحدان ولكون الشرع عقلا من خارج سلب الله تعالى اسم العقل من الكافر في غير موضع من القرآن نحو قوله تعالى (صمّ بكم عمى فهم لا يعقلون) ولكون العقل شرعا من داخل قال تعالى فى صفة العقل (فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) فسمى العقل ديناً ولكونهما متّحدَين (قال نور على نور) أى نور العقل ونور الشرع *

ثم قال يهدى الله لنوره من يشاء فجعلها نوراً واحداً فالشرع اذا فَقَدَ العقلَ لم يظهر به شيء وصار ضائعاً (١) ضياع الشماع عند فقد نور البصر: والعقل اذا فقد الشرع (٢)

---

(١) لذا كان الحق ضائعاً عند الجهلاء *

(٢) لذا احتاج العموم الى الشرائع*

عجز عن أكثر الأمور عجز العين عند فقد النور *

واعلم أن العقل بنفسه قليل الغناء لا يكاد يتوصل إلا الى معرفة كليات الشيء دون جزئياته نحو أن يعلم جملةً حسن اعتقاد الحق وقول الصدق وتعاطى الجميل وحسن استعمال المعدلة وملازمة العفّة ونحو ذلك من غير أن يعرف ذلك فى شيء شيء: والشرع يعرف كليات الشيء وجزئياته ويبين ما الذى يجب أن يعتقد فى شيء شيء وما الذى هو معدلة فى شيء شيء *

وعلى الجملة فالعقل لا يهتدى الى تفاصيل الشرعيات والشرع تارة يأتى بتقرير ما استقرّ عليه العقل وتارة بتنبيه الغافل واظهار الدليل حتى ينتبه لحقائق المعرفة، وتارة بتذكير العاقل حتى يتذكر ما فقده، وتارة بالتعليم وذلك فى الشرعيات وتفصيل أحوال المعاد: فالشرع نظام الاعتقادات الصحيحة والأفعال المستقيمة والدّال على مصالح الدنيا والآخرة ومن عدل عنه فقد ضلّ سواء السبيل والى العقل والشرع اشار بالفضل والرحمة بقوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا) وعُنى بالقليل المصطفين الأخيار *

﴿ بيان حقيقة الادراك ومراتبه فى التجريد ﴾

إعلم أن الادراك أخذ صورة المدرَك وبعبارة أخرى الادراك أخذ مثال حقيقة الشيء لا الحقيقة الخارجية فان

الصورة الخارجية لاتحل المدرك بل مثال منها فان المحسوس بالحقيقة ليس هو الخارج بل ماتمثّل فى الحاسّ فالخارج هو الذى المحسوسُ انتزع منه والمحسوس هوالذى وقع فى الحاس فشعربه ولا معنى لشعوره إلاوقوعه فيه وانطباعه به وكذلك المعقول هو مثال الحقيقة المرتسم فى النفس لأن العقل يجرّده عن جميع العوارض واللواحق الغريبة ان كان يحتاج الى التجريد *

وأما مراتب الادراكات فى التجريد فاعلم أولا أن المدرك الذى يفتقر الى تجريد لايخلوفى الوجود الخارجى عن لواحق غريبة وأعراض غاشية من قدر وكيف وأين ووضع فان الانسان مثلا له حقيقة وهو الحىّ الناطق وتلك الحقيقة عامة لأشخاص النوع ولا تكون فى الوجود تلك الحقيقة لاخاصة ولاعامة إلامع لواحق غريبة فان الانسان لوكان عاماً لما كان زيد الخاص انسانا ولوكان خاصاً بأن يكون زيد هو الانسان لكونه زيداً لما كان عمرو انساناً لأن الشىء اذا كان لذاته ماوجد لغيره *

فاذا فهمتَ هذا فاعلم أن مراتب المدركات مختلفة فى التجريد عن هذه الغواشى واللواحق وهوعلى أربع مراتب * الأولى انماهى الحس فانه يجرد نوعامن التجريد إذلا تحلُّ

فى الحاس تلك الصورة بل مثال منها إلا أن ذلك المثال انما
يكون اذا كان الخارج على قدر مخصوص وبُعْدٍ مخصوص
ويناله مع تلك الهيئة والوضع فلوغاب عنه أو وقع له حجاب
لايدركه *

المرتبة الثانية ادراك الخيال وتجريده أتمّ قليلاً وأبلغَ
تحصيلاً فانه لايحتاج الى المشاهدة بل يدرك مع الغيبوبة
إلا أنه يدرك مع تلك اللواحق والغواشى من الكم والكيف
وغير ذلك *

المرتبة الثالثة ادراك الوهم وتجريده أتم وأكمل مماسبق
فانه يدرك المعنى المجرد عن اللواحق وغواشى الأجسام
كالعداوة والمحبة والمخالفة والموافقة إلا أنه لايدرك عداوة
كلية ومحبة كلية بل يدرك عداوةً جزئية بان يعلم أن هذا
الذئب عدوٌّ مهروب عنه وإنَّ هذا الولد صديق معطوف عليه *

المرتبة الرابعة ادراك العقل وذلك هو التجريد الكامل
عن كل غاشية وجميع لواحق الأجسام بل جناب ادراكه
منزَّه عن أن يحومَ به لواحق الأجسام من القَدر
والكيف وجميع الأعراض الجسمية ويدرك معنى كلياً
لايختلف بالأشخاص فسواء عنده وجود الأشخاص
وعدمها وسواسيةٌ لديه القرب والبعد بل ينفذ فى أجزاء

الملك والملكوت وينزع الحقائق منها ويجردها عما ليس منها هذا ان كان يحتاج المدرك الى تجريد فان كان منزهاً عن لواحق الأجسام مبرءاً عن صفاتها فقد كفى المؤنة فلا يحتاج الى أن يفعل به فعلا بل يدركه كما هو *

﴿ سؤالات وانفصالات تحتها نفائس من العلوم ﴾

الأول فان قيل قد قلتم فيما سبق إن النفس قد يكون له استعداد محض بالنسبة الى المعقول وقد قلتم إن كل مجرد عن لواحق المواد فهو عقل بالفعل فما أرى هذا إلا تناقضاً فان كان النفس مجرداً فهو عقل بالفعل وان لم يكن مجرداً فليس بعقل *

فان قلتم إنه عقل بالفعل وانما لا يدرك المعقول لاشتغاله بالبدن فكيف كان يكون البدن تابعاً له خادماً فى كثير من الأشياء وكيف يكون معيناً له على التردد فى ترتيب المقدمات واستنتاج النتائج من الفكر الخالية وكيف يكون تابعاً عائقاً *

قلنا ليس كل مجرد كيفما كان هو عقل بالفعل أى تكون المعقولات حاصلة له دفعة بل المجرد التام هو الذى لا تكون المادة سبباً لحدوثه بوجه من الوجوه ولا سبباً لهيئة من هيئاته ولا لتشخصه : وقولك كيف يكون تابعاً وعائقاً هذا غير مستبعد فقد يكون الشىء ممكناً من شىء وعائقا

عنه فالبدن قد يعين النفس فى كثير من الأشياء على ماسيتلى عليك وقد يكون عائقا عن كثير من الأشياء وذلك اذا أكبّت على الشهوات ومقتضى صفات البدن واشتغلت بالحواس الظاهرة والباطنة *

الثانى فان قيل قد قيل إن النفس اذا حصلت فيها الصورة المعقولة لايبطل استعدادها : ومعلوم أن الاستعداد مع حصول الصورة بالفعل لايجتمعان *

قلنا هذا نوع مغالطة وعماية فان الاستعداد انما يكون بالنسبة الى مالم يحصل لابالنسبة الى ماحصل ومايحصُل لنا من المعقولات غير متناه ولا يحصل دفعة مادامت النفس مشغولة بالبدن أو بما صحبها من عوارض البدن بل انما يحصل بقدر مايكتسب وبقدر مايفيض عليها من هداية الله وأنوار رحمته *

نعم قد تكون النفس فى الاستفاضة والاستعداد مختلفةً فنفس كأنه زيت يضىء ولو لم تمسسه نار فتطلع على جلايا من المعقولات غير محصورة دفعة واحدة فيكون الفيض به متواصلا متواليا متواترا غير مفقود وأخرى لو تفكر كثيراً لا يرجع الفكر عليه برادّة وأخرى متوسطة بينهما وفى تلك الأوساط تفاوت واعداد ومراتب لاتحصى وفيها يتفاوت الناس رِفعة ودرجة وعزاً وذكراً وقرباً من الله تعالى *

الثالث فان قيل معلوم إن النفس انما تطلع على المعقولات بواسطة مَلَك يسمى عقلا يفيض منه المعقولات على النفس البشرية وهى انما تتصل به بواسطة مطالعة الصور فى الخيال اعنى الفكر والنظر وترتيب المقدمات بعضها على بعض وهذا انما يكون اذا كان الجسم والخيال باقياً فاذا تعطل الخيال بالموت فكيف تتصل به حتى يفيضَ عليه حقائق المعقولات : وقد قلتم إن البدن عائق فاذا فارق البدن يطلع على المعقولات ويتصل به دوام الفيض فكيف يكون هذا *

قلنا اعلم أن النفوس مختلفة فنفس مشرق صاف عن الكدورات يتلألأ فيه أنوار العلوم مؤيد من عند الله ثاقب الحدس ذكيّ الذهن لايحتاج الى الفكر والنظر بل يفيض عليه من أنوار العلوم بواسطة الملأ الأعلى مايشاء من المعقولات مع براهينها بل ولو لم يشأ حتى كأنه من كثرة مايستولى عليه من المعقولات يشرق علي خياله وحسّه فهذا النقش من المعقول يأتى المحسوس والمخيل فيحا كيه بمايناسبه من الأمثلة فيخبر عنه فهذا فى جلابيب البدن كأنه قد نضاها واتصل بعالم القدس فسواء عنده مفارقة البدن وملابسته فانه يستعمل البدن لا البدن يستعمله وينتفع به البدن لاهو ينتفع بالبدن ويخرج العقول الى الفعل لانه يخرج الى الفعل

فهذا هو العقل القدسى النبوىّ: ونفس أخرى انما تصل الى العلوم وحقائق المعقولات بواسطة البدن وقواه وا كتسابه العلوم بواسطة المقدمات الخيالية ولكن هذا انما يكون مادام ملابساً للبدن فاذا فارق البدن وكان مستقلا مستوسقاً وكان قد حصل له استعداد بالغ وزيته قد صُفّى ونفسُه قد هذّب فاذا فارق اتصل ولا يحتاج الى الخيال والفكر بل يكون عائقا وكثيراً مّا يصير المعين عائقاً اذا استغنى عنه وتفاوت هذ الصنف الوسط من النفوس كثير وفيه تتفاوت السعادة والرفعة والقربة من الله تعالى: ونفس تكون متشبثة بالاقناعات الواهية والخيالات المتداعية فاذا فارقت البدن تكون الخيالات متشبثة بها فاما أن يبقى فيها أو يتخلص بعد حين

الرابع فان قيل قد قيل إن النفس قد تطالع الصور الخيالية وهى فى أجسام والنفس مفارقة لا تحاذى الأجسام ولا توازيها فكيف يكون هذا *

قلنا هذا انما يشكل ان لو كان يأخذها خيالية جسمانية أما اذا كان يأخذها مجردة فليس فيه اشكال: وقولك بأنها مفارقة والصور جسمانية هذا صحيح ولكن معلوم أن بين النفس والبدن علاقة معقولة يتأثر أحدهما عن الآخر ولهذا اذا تذكّر النفس جانب القدس اقشعرّ البدن ويقف شعره

وكذلك النفس تتأثر عن مقتضيات البدن من الغضب والشهوة والحس ّ وغير ذلك : فالنفس مهما طالعت الصور الخيالية على الوجه الذى يليق بها فانه يتأثر عنها واذا تأثر عنها استعدّ لأن يفيض عليه المطلوب رحمة من الله ولطفاً به — ولهذا قال عليه الصلاة والسلام (ان لربكم فى أيام دهركم نفحاتٍ ألا فتعرضوا لها) فينبغى أن تكون النفس متعرضة لنفحات فضل الله حتى يفيض عليها إذ ليس فى جود الجوّاد الحق بخل وليس بيدنا تحصيل المعقولات بل التعرض لتلك النفحات: ثم استعداد التعرض أيضاً موهبة الهية لا تنال بيد الاكتساب *

الخامس فان قيل معلوم إن النفس تعقل المعقولات مترتبة مفصلة وقد قيل إن مايعقل المعقولات المترتبة المفصّلة فليس ببسيط واحد من كل وجه وقد ثبت أن مايدرك المعقولات كيفما كان يكون مجرداً لا تقدير للانقسام فيه فالنفس إما أن تكون صورة مادية فتكون جسمانية فينبغى أن لا تدرك المعقولات أو تكون مجرداً مفارقا فيكون ادراكها لا على الترتيب والتفصيل وليس بين الحالتين مرتبة اخرى *

قلنا صَدَقْتَ فيما قلت النفس تدرك المعقولات مفصّلة ومرتّبة وما يدرك المعقولات مفصلة مرتبة فليس له وحدة صرفة وتجريد محض إذ هو بالنسبة الى بعض المعقولات

بالقوة ففيه مابالقوة وفيه مابالفعل فالواحد الحق هو الله سبحانه فلاجرم ليس له شيء منتظر لاذاته ولا صفاته ويكون التركيب منفياً عنه من كل وجه قولا وعقلا وقدراً وما سواه فلايخلو عن تركيب مّا وان كان من حيث العقل لا تركيباً جسمانياً أو متوهماحتى أن العقل الذى هو المبدع الأول لايكون واحداً صرفابل فيه اعتباران ولهذا صدر منه أكثر من الواحد *

السادس فان قيل اذا حصلت الصورة المعقولة للنفس استحضرت النفس تلك الصورة فهل تحتاج الى ادراك آخر انها أدركت أو حصلت لها الصورة المعقولة المجردة : قلنا لا بل نفس الادراك انما هو حصول الصورة مجردة للنفس فان حصلت فقد أدركتها وإلا فيعد غير مدرك ولا واسطة بينهما ولا يحتاج الى ادراك آخر فانه يتسلسل *

السابع فان قيل النفس فى تحصيل المعقولات تفزع الى القوة المفكرة فتستعملها فى ترتيب المقدمات واستنتاج المطالب وهذا انما يكون فى اليقظة اذا أقبلت عليهاوفى النوم تتعطل المخيلة وكذا بعد الموت فكيف يحصل بعد ذلك المعقول *

قلنا أولا غير مسلم إن القوة المفكرة تبطل فى النوم وان النفس تتعطل عن ذلك بل كثيراً مّا تستولى النفس علي المتخيلة اذا كانت خالية عن شواغل الحواس فتغصبها وتستعملها فى

مطالبها ولهذا ينكشف كثير من المعقولات فى النوم *

نعم الغالب أن المتخيلة تستولى فى النوم ولا تطيع النفس وتجد الحس المشترك خاليا فتنقش فيه الصورة ولهذا يحتاج أكثر الرؤيا الى التعبير: ثم النفس قد لا تحتاج فى المعقول الى المفكرة بل يكون قوىّ الحدس زاكى النفس فيحصل له المعقولات ابتداءً فان لم تحصل ابتداء فعقب شوق الي تحصيل معقول فيفيض عليه المعقولات فان عجز عن ذلك ولا يكون له القوة الحدسية القدسية فحينئذ تفزع الى الفكر واستعمال التخيل فى استنباط المعقول *

الثامن فان قيل قد سلف إن النفس تدرك المعانى الكلية المجردة وتدرك نفسها وهى جزئية فكيف يكون هذا *

قلنا تدرك المجردات عن لواحق الأجسام وعوارض المواد سواء كان كليّا أوجزئيا ونفسك وان كان جزئيا ولكن هو مجرد عن صفات الأجسام فتشعر بنفسك انما لا تدرك نفسك الأجسام إلا بآلة جسمانية أما نفسك فليست بجسمانية وادراك نفسك لنفسك ليس إلا حصول حقيقتها لها فان حقيقتها المجردة حاصلة لها وليس ذلك مرتين فان حقيقتها واحدة ليست مرتين وقد بينا أنه لا معنى للمعقول إلا حصول مجرد للعاقل وليس كل معقول يحصل لشىء كيف

كان يكون معقولا بل مع شرط زائد وهو أن يكون مجرداً ولانعنى بقولنا حقيقتنا حاصلة لنا بالوجود فان الوجود يكون لكل شىء *

ومن هـذا تتنبه لسر عظيم وهو أن الحقيقـة التى لنا لايشاركنا فيها غيرنا من الحيوانات فان حقيقتنا المجردة غير حاصلة لها ولا نعنى أيضاً أن أصل حقيقتنا بالقياس الى نفسه أنه موجود الوجود الذى له ثم بالقياس الى نفسه أنه معقول بزيادة أمر فان حقيقة النفس لايعرض لها مرة شىء ومرة ليس ذلك الشىء وهى واحدة فى وقت واحد فليس لكونها معقولة زيادةَ شرط على كونها موجودة الوجود الذى لها بل زيادة شرط على الوجود مطلقاً وهوأن وجودها وماهيتها أنها معقولة حاصلة لها فى نفسها ليس لغيرها *

وهذا أجل ما أعرفه فى هذه الفصول والبيانات ويحتاج الى تصور ورسوخ فى النفس فان الأمور التصديقية لايمكن أن يخبر عنها مالم تتصور فى النفس ولم تترسخ فاذا تمكنت النفس من التصور سارعت الى التصديق *

وينبنى على هذا الفصل معرفة جميع الصفات الالهية لأن صفاته كلها اعتبارات واضافات وسلوب وليست زائدة على الذات ولا توجب كثرة فى الذات *

التاسع فان قيل إن كان التعقل هو أن يحصل للعاقل حقيقة المعقول فاذاً يحصل لنا اذا عقّلنا الاله والعقول بصور حقائقها فلكل اذاً منها حقيقتان فلم لايجوز أن يحصل لذواتنا أيضاً حقيقتان وهناك يجوز *

قلنا اذا أمكننا أن نعقل المفارقات بصور حقائقها فى نفوسنا فيكون لها حقيقتان حقائق في أنفسها لا نفسها وهى بها مفارقة وحقائق متصوّرة فينا فهى لنا وهى أعراض وأمثلة لتلك الحقائق فان العلوم بالجواهر لا يكون جواهر بل تكون فى الأذهان عوارض وفى أنفسها جواهر: ثم إنا نشعر بذواتنا وليس شعورنا بها إلا حصول حقيقتنا لنا من غير واسطة وإلا فيحصل دور: وذلك أنا اذا قلنا تعقّلنا ذاتنا وأردنا بها ادراكاً ومثالاً غير حصول الحقيقة فانما يكون تعقلاً أن لو حصل حقيقته لنا وانما تحصل الحقيقة ان لو تعقلنا وليس يتعلق الكلام بالتعقل أو الشعور بل بكل ادراك كان فانه ملاحظة لحقيقة الشيء لا من حيث هى خارجة، ولو كانت المدركات هى الخارجة لم تكن الأمور المعدومة معقولة بل هى فينا وليست الملاحظة وجوداً لها ثانيا بل نفس انتقاشها فينا والا لتسلسل الى غير النهاية الا أنا على سبيل التوسع نقول نلاحظ حقائقها تشبهاً بالمحسوسات على مجرى العادة وعند التحقيق المحسوسات

أيضاً ملاحظتها حصول حقائقها التى هى بها محسوسة لنا حتى تصير الخارجة بها ملاحظة *

العاشر فان قال قائل إحسب أنا نعقل ذواتنا ولكن لم يتبين بعد أنه هل يجوز أن نعقل بآلة جسمانية أم لا وهل القوة العقلية فى جسم أم لا فلم لا يجوز أن تحصل القوة العقلية فى الجسم فتشعر بها القوة الوهمية كما أن القوة العاقلة تشعر بالقوة الوهمية فلا تكون ذات القوة العقلية حاصلةً لذاتها بل لغيرها كما أن القوة الوهمية ليست حاصلةً لذاتها بل مثلاً للقوة العقلية *

قلنا فينا أولاً قوة نُدرك بها المعانى الكلية وأخرى بها ندرك الجزئيات والقوة التى ندرك بها الكلي تدرك بما يدرك به الكلي وذلك سمِّه ماشئتَ لكنّا نسميه القوة العقلية ولا يخلو إما أن يعتبر الشعور أو الادراك العقلى: أما الادراك العقلىّ فقد عرف مايوجبه وأما الشعور فأنت انما تشعر بهويّتك بذاتك لا ببعض قواك إذ لو شعرت ذاتك ببعض قواك كحسّ أو تخيل أو توهم لم يكن المشعور هو الشاعر وأنت مع شعورك بذاتك تشعر أنك انما تشعر بنفسك فانت الشاعر وأنت المشعور *

ثم ان كان الشاعر بنفسك قوة غير ذاتك فلا يخلو إما

أن تكون قائمة فى نفسك أو فى جسم فان كانت قائمة في نفسك فيكون وجود نفسك لقوة نفسك فيرجع على نفسها مع القوة ولا يكون لغيرها : وان كانت تلك القوة قائمة فى جسم ونفسك غير قائمة فى ذلك الجسم فيكون الشاعر ذلك الجسم بتلك القوة لشيء مفارق ولا يكون هناك شعور بذاتك بوجه ولا ادراك لذاتك بخصوصيتها بل يكون جسم مايحس بشيء غيره كما تحس بيدنك على أن ادراك القوة الجسمانية الجوهر المفارق محال وان كانت نفسك بتلك القوة قائمة فى ذلك الجسم فقد بينا استحالة ذلك فانه يلزم أن تكون النفس وقوتها وجودهما لغيرهما فلا تكون النفس بتلك القوة تدرك ذاتها ولا ذلك الجسم لأن ماهية القوة والنفس معاً لغيرهما وهو ذلك الجسم وان كان جوهر النفس هو القوة التى بها يدرك فليسا يفترقان *

الحادى عشر فان قيل وما يدرينا أن شعورنا بذاتنا هو تعقلنا له فعسى هو ادراك آخر لايقتضى ذلك الادراك أن تكون حقيقة ذاتنا حاصلةً لنا بل هو أثر على وجه ماحصل لنا من ذاتنا فلا يكون ذلك الأثر هو بعينه حقيقة الذات فلا يمتنع أن يكون لنا حقيقة وجود يحصل منها لنا أثر فنشعر بذلك فلا يكون الأثر هو الحقيقة فلا يكون قد حصل لنا

ذاتنا لذاتنا *

قلنا من لا يتصور حقيقـة ماهيته فليس يعقل ماهيته وليس الادراك إلا تحقق حقيقة الشيء من حيث يدرك وهو معنى الشيء بالقياس الى لفظه *

وقوله يحصل لنا أثر فنشعر بذلك الاثر فلا يخلو إما أن يجعل الشعور نفس حصول الأثر أو شيئاً يتبع حصول الأثر فان كان نفس حصول الأثر فقوله فنشعر بذلك الأثر لا معنى له بل هو اسم آخر وقول آخر مرادف له: فان كان الشعور شيئاً يتبعه فاما أن يكون حصول معنى ماهية الشيء أو غيره فان كان غيره فيكون الشعور هو تحصيل ماليس ماهية الشيء ومعناه وان كان هو هو فتكون ماهيـة الذات تحتاج فى أن يحصل لها ماهية الذات الى أثر آخر به تحصل ماهية الذات يُحصّلها أثر فليست متأثرة بل متكونة وان كانت ماهيـة الذات تحصـل ثانياً بحال آخر من التجريد أو نزع بعض مايقارنها من العوارض أو زيادة تضاف اليها فيكون المعقول هو الذى بحال أخرى وكلا منافى نفس الماهية وجوهرها الثابت فى الحالين *

الثانى عشر فان قال قائل قد ذكرتم إن المانع عن التعقل هو المادة والاشتغال بالبدن فما الدليل على أن المانع هو المادة

وانه محصور فيها *

قلنا من علم الذات العاقلة حقيقة علم أن المانع هو المادة وذلك لأن الذات التى تجلى فيها حقائق الأشياء هو الجوهر المجرد عن غواشى الأجسام وليس فيه ما يكون بالقوة وكل جوهر هذا حقيقته فانه يتأثر ولا ينفعل عن الغواشى الغريبة فان تأثر عن غاش غريب فيكون بسبب المادة لأن المادة هى التى تُغشّى لها غرائب وعوارض فاذاً كل ما يكون عقلاً فانه متحقق الذات مجرد عن المواد ولا ينفعل ولا يتأثر ولا يكون مافيه بالقوة وكل مايكون له يكون دفعة واحدة *

الثالث عشر فان قيل ماذكرتموه هدم لقاعدة عظيمة فان مساق هذا الكلام يقتضى أن يكون نفسنا جوهراً ماديافانه معلوم أنه يقبل المعقولات شيئاًفشيئاً ويتأثر وينفعل عن الغواشى الغريبة فلو لم يكن جوهراً ماديا فينبغى أن لايتأثر ويحصل له المعقولات دفعة :ومعلوم أن الأمر بخلاف ذلك*

قلنا غَفَلْتَ عن دقيقة فانا قلنا كل مايكون عقلايكون متحقق الذات ولاينفعل وهذا موجبة كلية فعكسها يكون موجبة جزئية وهو أن بعض مايكون متحقق الذات ولا ينفعل يكون عقلا ولايلزم أن نفسنا تكون جوهراً متحقق الذات بريا عن لواحق المادة وعن صفات الأجسام *

نعم انما يقبل المعقولات شيئاً فشيئاً بسبب أنه يحتاج
فى كثير من المعقولات فى أكثر النفوس الى الاستعانة بالبدن
ولا يطاوعه البدن ولا يشايعه فى مقصوده فتنبتر عليه مقاصده
ومطالبه وان طاوعه فى لمحة فيكون كبرق خاطف فيعقبه
مايشوّش عليه فكره وينغّص وقته : فنسأل الله التأييد والتسديد
والرشاد الي سواء السبيل *

الرابع عشر فان قيل قد قلتم إن ذاتك اذا كانت حاصلة
لك فهي معقولة لك ودليله أن الذات إما أن تكون حاصلة
لغيرك أو ليس لغيرك فان لم تكن حاصلة لغيرك فتكون
حاصلة لك وما يدرينا فلعلّها حاصلة لا لغيره ولا لذاته *

قلنا هذا روم درجة بين النفى والاثبات ولا واسطة ثم
لو لم تكن ذاتك لك لما قلت ذاتى ونفسى لأنه لو كان لغيرك
لما قبل هذه الاضافة : ثم التحقيق فيه وهو سر عظيم وفتح باب
من خزائن العلوم هو أن كل شيء حقيقته الصرفة لا توجد
متعينة بلا لوازم تتعين بها فهو من حيث حقيقته شيء ومن
حيث أنه ملزوم لوازم شيء : وبالجملة اذا أخذت الحقيقة مع
اللوازم شيء وهو إنما يتعين لا بأنه حقيقة بل من حيث أنه
ملزوم لوازم فبتلك اللوازم يتعين فاذاً تكون حقيقة الذات
فى نفسها لا بشرط آخر شيء : ومن حيث هو متعين شيء

فتكون هناك غيرية تقبل الاضافة والنسبة والله المرشد *

الخامس عشر فان قيل قد ذكرتم إن للنفس ملكة بها تتمكن من تحصيل المعقولات فهذه الملكة التى بها تستحصل الصور المعقولة ان كانت قوة طارئة على النفس فالنفس مركبة وقد أقمتم البرهان على انه واحد ليس بمركب : ثم لا يصح البرهان بعد ذلك على أنها لا تفسد بالموت وان لم تكن قوة طارئة عليها بل استكمالا فتكون من حيث تؤثر تتأثر ومن حيث تفعل تنفعل ثم ما البرهان على انها ليست قوة طارئة وانها استكمال وكيف حل هذا السؤال ان كان استكمالا *

قلنا إعلم أن النفس فى ذاتها جوهر ليس بمركّب الذات اذا أخذ مع تلك الملكة الحاصلة والاستكمال انما يكون من خارج فليس هو من حيث يؤثر يتأثر ولا من حيث يفعل ينفعل وكأنّ هذا الاستكمال يفعل فى جوهر النفس صوراً فهو من حيث انه يتصور بها النفس استكمال : ومن حيث انه يتمكن بها من الاطلاع على صور أخرى معقولة قوة : ومن حيث هى لازمة لا مقومة ولا طارئة *

السادس عشر فان قيل قد أثبتم بالبرهان ان النفس من المفارقات فكيف تنتفع بالبدن وما فيه من الحسّ والخيال وكيف تكتسب العلوم بواسطة قوة التخيّل وتُحصّل الفضائل

وتكتسب الرذائل بواسطة القوى البدنية وكيف تؤثر الطاعات والمواظبة على العبادة فى التنوير والتصفية وكيف تؤثر المعاصى والانهماك فى الشهوات حتى يرتقى منها ظلمات الى النفس فيبطل بها الاستعداد الفطرى *

قلنا هذا سؤال شريف والانفصال عنه أشرف منه وإعطاء البرهان فى ذلك مشكل وانما الطريق فيه الوجدان والعرفان يقينا: والنفس خلقت بالفطرة مستعدة للعلوم والعلوم تحصل فيها بالتدريج فلا بد من استعمال الفكر والخيال كما قدمنا وكما نذكر بعد ذلك من انتفاع النفس بالقوى *

أما تأثير الطاعات والمعاصى في التنوير والاظلام فذلك لأن سعادة النفس وكمال جوهرها أن تكون مولية وجهها شطر الحق معرضة عن الحواس منخرطة فى سلك القدس مستديمة لشروق نور الحق فى سرها فكل مايكون مانعاً من ذلك يكون حاطا لها عن درجتها و تقدر بقدر ما تعرض عن حضرة الجلال والالتفات الى جانب القدس باتباع الشهوات تعرض عنها الانوار الالهية وكلما كانت أدرب (١) بالمعقولات كانت الى السعادة أقرب: فالنفس لها قرب وبعد فقربها بقدر العلوم وتحصيل الفضائل وبعدها بالجهل وتحصيل الرذائل *

---

(١) من التدريب *

وبهذا يتبين سر أنوار إتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله فان له خاصية عظيمة فى تنوير القلب فان القلب انما تجلى فيه جلايا الحقائق بأن يكون معدلا مصقلا منوراً وتصقيله بالتوجه الى جناب القدس وبالاعراض عن مقتضى الشهوات: وتعديله بالأخلاق الحسنة الموافقة للسنة: وتنويره بالذكر ووظائف العبادات ولا دليل أقوى فى هذا من التجربة والوجدان فكل من ليس له سبيل اليه بالعرفان ولا بالوجدان فينبغى أن يصدق به فانه درجة الايمان والله الموفق *

﴿ ذكر منشأ الفضائل والرذائل ﴾

— اعلم أن أكثر الفضائل والرذائل انما تنشأ من ثلاث قوى في الانسان: قوة التخيل وقوة الشهوة وقوة الغضب ـ فهذه الثلاثة معينات للنفس ومثبطات *

﴿ زيادة تبصرة ﴾

أما القوة المتخيلة فهى ذات وجهين ـ أحدهما يلي جانب الحس ويقبل منه الصور المحسوسة كما يؤدى اليها الحس حقيقة أو مجازاً *

أما الحقيقة فالصورة التى هى فى نفسها كذلك ـ وأما المجاز فكالصورة التى ليست فى نفسها كذلك لكنها تُرى

كذلك مثل السراب والصدى والمتحرك الذى هو ساكن وكالساكن الذى هو متحرك والخيال يتخيلها كذلك *

والوجه الثانى يلى جانب العقل ويقبل به الصورة المعقولة كما يؤدى اليه الفكر العقلي حقا وباطلا *

أما الحق فكالصورة التى هى فى نفسها كذلك - وأما الباطل فكالصورة التى ليست فى نفسها كذلك لكنها ترى كذلك كالشبهات والضلالات والسحر والكهانة فان الاذهان كثيراً ما تزيغ عن الجادة فترى الخطأ صوابا والصواب خطأ - ولهذا قيل « أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه » والتدبير أن لا يعتمد عليها مالم يزنها بالقوانين المنطقية والبراهين اللائحة ثم قد تقع الصور فى التخيل دفعة واحدة كالمرآة المقابلة للمرآة تقع الصورة فى احديهما كما تقع فى الثانية دفعة واحدة وذلك اذا كانت الصورة وقعت فى البصر الحاس أولا *

أما المسموعات بالسمع فتقع فيه على ترتيب وتدريج على حسب تعاقب الحروف والكلمات - وأما من جانب العقل فالمعقولات قد تقع فيه دفعة واحدة كالمرايا المتقابلة وذلك لأن العلوم منتقشة فى ذوات النفوس السماوية فاذا اتصلت به النفس الانسانية تقع منها فيها الصور بقدر جلائها واستعدادها وسيأتى شرح هذا بعد ذلك فى النبوة والرسالة . ثم ان كان

ذلك حقا فهو وحى والهام وحدس * والوحى هو أن يرى صورة الملك : وفى الالهام والحدس لا يرى وان كان باطلا فهو سحر وكهانة وعرافة وقد يقع فيه أى فى النفس على ترتيب وتدريج بحسب المقدمات القياسية وذلك إن كانت يقينية فهو برهان وحجة وان كانت مشهورة محمودة عند قوم فهو خطابى وإن كانت الزامات على خصم فهو جدلي : وان كانت كاذبةً ظاهرة الكذب فهو سوفسطائى : وان كانت مخيلة فهو شعرىّ *

ثم إن غَلَبَ على الخيال جانبُ الحس شبه كل معقول بمحسوس وإن غلب عليه العقل شبّه كل محسوس بمعقول فخيال الانبياء عليهم الصلاة والسلام يرى من المحسوس المعنى المعقول وهو ما كان صدوره منه أو وروده عليه ومرجعه اليه فيرى شخصاً فى هذا العالم ويحكم عليه أنه تفاحة من الجنة وشخصا قطعت يده فى سبيل الله نبت له جناحان يطير بهما فى الجنة وشخصا قتل فى سبيل الله حيًّا قائما يرزق فرحا مستبشراً بما آتاه الله من فضله وعلى العكس من ذلك يرى من المعقول محسوسا ومن الروحانى جسمانيا هذا جبريل جاءكم يعلّمكم أمر دينكم فتمثّل لها بشراً سوياً: ثم من قوة اشراق نور خياله ونور روحه يشرق أيضا على من يناسبه فى تلك

القوة والاستعداد فيراه كما رأى النبي صلى الله عليه وسلم : فالتخيل اذاً فيصل بين العالمين وحاجز بين البحرين ومفصل بين الحكمين ولولاه لما بقي محسوس ومعقول للانسان ولا كانت الصورة والمعنى مدركين بمدرك الحس والبرهان *

وقوة التخيل ليست متشابهة فى أصناف الناس بل هى مترتبة متفاضلة ، وربما تكون متضادة فمن ذلك ما يناسب الروحانيين من الملائكة ويكون مهبطهم اليه ونزولهم عليه وظهورهم له وتأثيرهم فيه وتمثلهم به حتى تكلم الشخص بكلامهم وتكلموا بلسانه ورأى الشخص بأبصارهم وأبصروا بعينيه وسمع بأسماعهم وسمعوا بآذانه وهم ملائكة يمشون فى الأرض مطمئنين (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة)

ومن ذلك ما يناسب الشياطين من الأبالسة ويكون مهبطهم اليه وظهورهم له وتأثيرهم فيه وتمثلهم به حتى اذا ظهروا عليه تكلم الشخص بكلامهم وتكلموا بلسانه ورأى الشخص بأبصارهم وابصروا بعينيه وسمع بآذانهم وسمعوا بأذنيه وهم شياطين الانس يمشون فى الأرض متوهجين (قل هل أنبؤكم على من تنزّل الشياطين تنزّل على كلّ أفاك أثيم يُلقون السّمع وأكثرهم كاذبون) وحيثما كانت استقامة فى حال الخيال كان

منزل الملائكة : وحيثما كان اعوجاج فى حال الخيال كان منزل الشياطين *

أما القوّة الشهوية ففيها أيضا مَضَرّة ومنفعة وهى أصعب اصلاحا من سائر القوى لأنها أقدم القوى وجودا فى الانسان وأشدّها به تشبثا وأكثرها منه تمكنا فانها تُولد معه وتوجد فيه وفى الحيوان الذى هو جنسه بل فى النبات الذّى هو كجنس جنسه : ثم توجد فيه قوّة الحمية ثم آخرا توجد فيه قوة الفكر والنطق والتميز ولا يصير الانسان خارجا من جملة البهائم وأسر الهوى إلا باماتة الشهوات أو بقهرها وقمعها إن لم يمكنه إماتته إياها فهى التى تضرّه وتغرّه وتعوّقه وتصرفه عن طريق الآخرة وتثبّطه : ومتى قمعها أو أماتها صار الانسان حرّا نقيا بل إلهيّا ربانيا فتقلّ حاجاته ويصير غنيا عمّا فى يَدَىْ غيره وسخيا بما فى يده ومحسنا فى معاملاته *

وأما منفعتها فهى أن هذه الشهوة مهما أُدِّبَتْ فهى المبلغة للسعادة وجوار ربّ العزة حتى لو تصورت مرتفعة لما أمكن الوصول الى الآخرة وذلك أن الوصول الى الآخرة بالعبادة ولا سبيل الى العبادة إلا بالحياة الدنيوية ولا سبيل الى الحياة الدنيوة إلا بحفظ البدن ولا سبيل لحفظه إلا باعادة مايتحلل منه ولا سبيل الى اعادة مايتحلل منه إلا بتناول الأغذية ولا

يمكن تناول الأغذية إلا بالشهوة *

وأيضاً فان الدنيا مزرعة الآخرة وقوام عمارة الأرض وتزجية المعاش بهذه الشهوة فلو تصوّرت مرتفعة لاختل نظام الدّين والدنيا وارتفعت المعاملات من بين الناس وارتفعت الشريعة والسياسة فاذاً هذه القوة الشهوية مثل عدوّ يخشى مضرته من وجه ويرجى منفعته من وجه ومع عداوته لا يستغنى عن الاستعانة به : فحق العاقل أن يأخذ نفعه ولا يركن اليه ولا يعتمد عليه إلا بقدر ما ينتفع به وما أصدق فى ذلك قول المتنبّى

ومن نكدِ الدنيا على الحرّ ان يرى * عدواً له مامن صداقته بُدٌّ

ومن نوافذ الحيل فى قمع هذه الشهوة ان يتسلط بقوة الحميّة على قوة الشهوة حتى تنقمع ولا تميل الى مذام الأخلاق وسَفْسافها كما أن الطريق فى قمع الغضب وسَوْرَته أن يتسلّط بخلابة الشهوة على القوة الغضبية حتى تكسّر استشاطتها أو غلواؤها فانها تنقاد للمطامع وعوارض الحاجات ، ومن الطريق فى معالجة أفراط الشهوة حتى يكسرها كسراً و يزبرها زبراً مطالعة فضائل قلّة الأكل من الأخبار والآثار والوقوف على فوائد قلة الأكل من صفاء القلب واتقاد القريحة ونفاذ البصيرة ومُواتاة الفكر الموصل الى المعرفة والاستبصار بحقائق الحق ورقة القلب وصفائه الذى به يتهيأ لأ دراك لذة المناجاة

والتأثر بالذكر ومِن الانكسار والذلّ وزوال البطر والمرح والفرح والأشر الذى هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله تعالى وأن لاينسى بلاءَ الله وعذابَه ولا ينسى أهلَ البلاء *

ومن فوائد قلة الأكل كسر الشهوة الداّعية الى المعاصى والاستيلاء على النفس الأمّارة بالسوء ومن فوائد قلة الأكل دفع النوم ودوام السهر وتيسر المواظبة على العبادة ، ومن فوائدها صحة البدن ودفع الأمراض المنغّصة للعيش المانعة من العبادات المشوّشة لقوة الفكر ،ومن فوائدها خفّة المؤنة والتحلى بمز ّ القناعة والاستغناء عن الناس الذى هو مظنة الاخلاص والعز،ومن فوائدها أن يتمكن من الايثار والبذل والسماحة والتصدق على اليتامى والمساكين *

وعلى الجملة مفتاح الزهد والعفة والورع قلة الأكل وقمع الشهوة: ومفتاح الدنيا وباب الرغبة فيها استرسال الشهوة بموجب الطبع وهذه القوة الشهوية لها شعبتان، احداهما شهوة البطن ، والثانية شهوة الفرج فشهوة البطن ليبقى الشخص بعينه وشهوة الفرج ليبقى بنسله وأعقابه ونوعه ولكن فيها من الآفات مايهلك الدين والدنيا ان لم تُضْبَطْ * (١)

ولم تُقْهَرْ ولم تُزَمْ بزِمام التقوى ولم تُرَدَّ الي حدّ الاعتدال

---

(١) والنفس راغبة اذا رغبتها * واذا ترد الى قليل تقنع

ولو لم تكن هذه الشهوة لما كان للنساء سلطنة على الرجال ولما كانت النساء حبائلَ الشيطان وجميع الفواحش من هذه الشهوة اذا كانت مفرطة وجميع الفضائح منها اذا كانت خامدة مفرطةً كالعنة والخنوثة *

والمحمود أن تكون معتدلةً ومطيعة للعقل والشرع فى انبساطها وانقباضها ومهما أفرَطَتْ فكسرها بالجوع وبالنكاح وغضّ البصر وقلة الاهتمام بها وشغل النفس بالعلوم واكتساب الفضائل فبهذا تندفع *

أما القوة الغضبيّة فانها شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة التى تطّلع إلا أنها لا تطلع إلا علي الأفئدة وانها المستكنّة فى ضمن الفؤاد استكنان النار تحت الرّماد ويستخرجها الكبر الدفين من قلب كل جبار عنيد كما يستخرج النار من الحديد : وقد انكشف لأولى الأبصار بنور اليقين أن الانسان ينزع منه عرق الى الشيطان الرجيم اللعين فمن استفزته نار الغضب فقد قويت فيه قرابة الشيطان حيث قال خلقتنى من نار وخلقته من طين فان شأن الطين السكون والرقاد وقبول الآثار، وشأن النار التلظّى والاشتعال والحركة والاضطراب والصعود وعدم قبول الآثار، ومن نتائج الغضب الحقد والحسد وكثير من أخلاق السوء ومقيضها ومنشؤها

مضغة اذا صلحت صلح بها سائر الجسد *

وفى هـذه القوة افراط واستيلاء يجذب الى المهالك والمعاطب ،وفيها تفريط وخمود يقصُر عن المحامد من الصبر والحلم والحَمِيّة والشجاعة ، ومن الاعتدال يحصل أكثر محامد الأخلاق من الكرم والنجدة وكبر النفس والاحتمال والحلم والثبات والشهامة والوقار ، والأسباب المهيجة للغضب هى الزهو والعجب والمزحُ والهزل والتعيير والماراة والمضادة والغدْر وشدّة الحرص على فضول المال والجاه وهى بأجمعها أخلاق ردية مذمومة شرعا وعقلا ولاخلاص عن الغضب مع بقاء هذه الأسباب فلابد من ازالة أسبابها بأضدادها حتى يُقهر الغضب ويردّ الى حال الاعتدال وهذا شأن المداواة حساً وعقلا *

﴿ بيان أمهات الفضائل ﴾

الفضائل وان كانت كثيرة فيجمعها أربع تشمل شُعَبها وأنواعها وهى الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة . فالحكمة فضيلة القوّة العقلية ، والشجاعة فضيلة القوّة الغضبية ،والعفة فضيلة القوّة الشهوية ، والعدالة عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب فيها فبها تم جميع الامور ولذلك قيل بالعدل قامت السماوات والأرض ، فلنشرح هذه

الأمهات وما يتولد منها وينطوى من الأنواع تحتها *

أما الحكمة فنعنى بها ما عظّمها الله تعالى فى قوله (ومن يؤتَ الحكمةَ فقد أوتى خيرا كثيراً) وما أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « الحكمة ضالة المؤمن » وهى منسوبة الى القوّة العقلية ، وقد عرفت فيما سبق ان للنفس قوتين احداهما تلى جهة فوق وهى التى بها تتلقى حقائق العلوم الكلية الضرورية والنظرية من الملأ الأعلى وهى العلوم اليقينية الصادقة أزلاً وأبداً لا تختلف باختلاف الأعصار والأمم كالعلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وكتبه ورسله وأصناف خلقه وتدبيره لملكه وملكوته وأحوال الإبداء والإعادة خلقا وأمراً وأحوال المعاد من السعادة والشقاوة وعلى الجملة جميع حقائق العلوم *

والقوة الثانية هى التى تلى جهة تحت أعنى جهة البدن وتدبيره وسياسته وبها تدرك النفس الخيرات فى الأعمال وتسمى العقل العملى وبها يسوس قوى نفسه ويسوس أهل منزله وأهل بلده *

واسم الحكمة لها من وجه كالمجاز لأن معلوماتها كالزيبق تنقلب ولا تثبت وتختلف باختلاف الأحوال والاشخاص ، ومن معلوماتها ان بذل المال فضيلة وقد يصير رذيلة فى بعض

الأوقات وفى حق بعض الاشخاص فلذلك كان اسم الحكمة بالاول أحق وان كان بالثانى أشهر وهذا الثانى كالكمال والتتمة للأول وهذه هى الحكمة الخلقية والأولى هى الحكمة العلمية النظرية ونعنى بالحكمة الخُلقية حالة وفضيلة للنفس العاقلة بها تسوس القوّة الغضبية والشهوّية وتقدّر حركاتهما على الحد الواجب فى الانقباض والانبساط وهى العلم بصواب الافعال وتدبير أحوال هذا العالم مستمدّ من العقل النظرى فالعقل النظرى يستمدّ من الملائكة الكليات ، والعقل العملى يستمدّ من العقل النظرى الجزئيات ويسوس البدن بواجب الشرع وهذا على مثال العقل والنفس واجرام السماء فان العقل يدرك الكليات وليس فيه مافى القوة وتدرك النفس منها الكليات وبواسطة الكليات تدرك الجزئيات فيحرك السماوات فيتحرك من تحريكها العناصر فيتولد منها المركبات وكذلك عقلنا يستمد من الملائكة الكليات ويفيض الكليات على العقل العملي : والعقل العملى بواسطة البدن وقوة التخيل يدرك جزئيات عالم البدن فيحركها بواجب الشرع فيتولد منها الاخلاق الجميلة *

وهذه الفضيلة الخلقية يكتنفها رذيلتان الخبُّ والبله أما الخبُّ فهو طرف أفراطها وزيادتها وهو حالة يكون

الانسان بها ذا مكرا وحيلة باطلاق الغضبية والشهوية لتتحركا الى المطلوب حركة زائدة على قدر الواجب *

وأما البَلَهُ فهو طرف تفريطها ونقصانها عن الاعتدال وهو حالة للنفس تقصر بالغضبية والشهوية عن القدر الواجب ومنشؤه بطء الفهم وقلة الاحاطة بصواب الأفعال ، ويندرج تحت فضيلة الحكمة حسن التدبير وجودة الذهن وثقابة الرأى وصواب الظن *

أما رذيلة الخبّ فيندرج تحتها الدهاء والجربزة - وأما رذيلة البله فيندرج تحتها الغمارة والحمق والجنون *

أما الشجاعة فهى فضيلة القوة الغضبية بكونها قوية الحمية ومع قوة الحمية منقادة للعقل المتأدب بالشرع فى اقدامها وإحجامها وهى وسط بين رذيلتين مطيفتين بها وهما التهور والجبن *

فالتهور لطرف الزيادة على الاعتدال وهى الحالة التى بها يقدم الانسان على الأمور المخطرة التى يجب فى العقل الاحجام عنها *

وأما الجبن فطرف النقصان وهى الحالة التى بها تنقبض حركة القوة الغضبية عن القدر الواجب فتصرف عن الاقدام حيث يجب الاقدام ، ومهما حصلت هذه الأخلاق صدرت

منها هذه الافعال أى يصدر من خلق الجبن الاحجام لافى محله ومن التهور الاقدام لافى محله وهما خلقان مذمومان *

ومن الشجاعة يصدر الاقدام والاحجام حيث يجب وكما يجب وهو الخلق الحسن المحمود ، واياه أراد بقوله تعالى (اشداء على الكفّار رحماء بينهم) فلا الشدة فى كل مقام محمود ولا الرحمة : بل المحمود مايوافق معيار العقل والشرع فتى حصل له ذلك فلينظر فان كان طبعه مائلا الى النقصان الذى هو الجبن فليتعاطى افعال الشجعان تكلفا ومواظبة عليها حتى يصير له بالاعتياد طبعا وخلقا فيفيض منه افعال الشجعان بعد ذلك طبعا ، وان كان مائلا الى طرف الزيادة وهو التهور فليشعر نفسه بعواقب الامور وبعظم أخطارها وليتكاف الاحجام الى أن يعود الى الاعتدال أو مايقرب منه فان الوقوف على حقيقة حد الاعتدال شديد ولو تصوّر ذلك لارتحلت النفس عن البدن وليس معها علاقة منها فكانت لا تتعذّب أصلا بالتأسف على مايفوته منها وكان لايتكدر عليه ابتهاجه بما يتجلّى له من جمال الحق وجلاله ولكن لما عَسُرَ ذلك قيل وان منكم إلاّ واردها كان على ربك حتما مقضيّا *

وقال عليه السلام « شيبتنى سورة هود واخواتها » وأراد

به قوله تعالى (فاستقم كما أُمرتَ) فان الامتداد على الصراط المستقيم فى طلب الوسط بين هذه الأطراف شديد وهو أدقّ من الشعر وأحد من السيف كما وُصف من حال الصراط فى الدار الآخرة : ومن استقام على الصراط فى الدنيا استقام عليه فى الآخرة بل يكون فى الآخرة مستقيما إذ يموت المرأ على ما عاش عليه ويحشر على مامات عليه ولذلك يجب فى كل ركعة من الصلاة سورة الفاتحة المشتملة على قوله تعالى (إهدنا الصراط المستقيم) فانه أعزّ الأمور وأعصاها على الطالب ولو كلّف ذلك فى خلق واحد لطال العناء فيه فكيف وقد كُلِّفنا ذلك فى جميع الأخلاق مع خروجها عن الحصر كما سيأتى ولا مخلصَ عن هذه المخطرات إلا بتوفيق الله ورحمته ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : الناس كلهم هلكى إلا العالمون والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم) *

فنسأل الله العظيم أن يمدّنا بتوفيقه لنتجاوز الأخطار فى هذه الدار ولا ننخدع بدواعى الاغترار فهذا هذا — ثم مايندرج تحت فضيلة الشجاعة فهو الكرم والنجدة وكبر النفس والاحتمال والحلم والثبات والنُّبلِ والشهامة والوقار * أما رذيلة التهوّر فيندرج تحتها البذخ والجسارة والتقبح

والاستشاطة والتكبر والعجب *

وأما رذيلة الجبن فيندرج تحتها النذالة والنكول وصغر النفس والهلع والانفراط والتخاسُس والمهانة *

أما العفة فهي فضيلة القوة الشهوية وهي انقيادها على يسر وسهولة للقوة العقلية حتى يكون انقباضها وانبساطها بحسب اشارتها ويكتنفها رذيلتان الشره وخمود الشهوة: والشره هو افراط الشهوة الي المبالغة فى اللذات التي تستقبحها القوة العقلية وتنهى عنها والخمود هو قصور الشهوة عن الانبعاث الى مايقتضى العقل تحصيله وهما مذمومان كما أن العفة التي هي الوسط محمود وعلى الانسان أن يراقب شهوته فالغالب عليها الافراط لاسيما الى الفرج والبطن والى المال والرياسة وحب الثناء والافراط فى ذلك نقصان وانما الكمال فى الاعتدال ومعيار الاعتدال العقل والشرع وذلك بان يعلم الغاية المطلوبة من خلق الشهوة والغضب مثلا بان يعلم أن شهوة الطعام انما خلقت لتبعث علي تناول الغذاء الذى يسد بدل مايتحلل من أجزاء بدنه بالحرارة الغريزية حتى يبقى البدن حياً والحواسُ سليمة فيتوصل بالبدن الى نيل العلوم ودرك حقائق الامور ويتشبه بالطبقة العالية بالاضافة اليه وهى الملائكة وبها كمالها وسعادتها ومن عرف هذا كان قصده

من الطعام التقوّى على العبادة دون التلذذ به فيقتصر ويقتصد به لا محالة ولا يشتد اليه شرهه *

ويعلم أن شهوة الجماع خلقت فيه لتكون باعثة له على الجماع الذى هو سبب بقاء النوع الانسانى فيطلب النكاح للولد والتحصن لا للعب والتمتع وان تمتع ولعب كان باعثا عليه التألف والاستمالة الباعثة على حسن الصحبة وإدامة النكاح ويقتصر من الانكحة على القدر الذى لا يعجز عن القيام بحقوقه : ومن عرف ذلك سهل عليه الاقتصار وعند ذلك لا يقيس نفسه بصاحب الشرع صلى الله عليه وسلم إذ كان لا يشغله كثرة الانكحة عن ذكر الله تعالى وكان لا يلزمه طلب الدنيا لأجل الزواج ومن ظن أن مالا يضر صاحب الشرع لا يضره كان كمن يظن أن مالا يغير البحر الخضم من النجاسات لا يغير كوزاً مغترفا من البحر: وكم أحمق يتكايس فيقايس نفسه به مقايسة الملائكة بالحدادين فيهلك من حيث لا يدرى نعوذ بالله من عمى البصيرة هذا كله حكم العفة *

وأما ما يندرج تحت فضيلة العفة ورذيلتها ففضائل العفة الحياء والمسامحة والتصبر والسخاء وحسن التقدير والانبساط والدماثة والانتظام والقناعة والهدو والورع والطلاقة والمساعدة وحسن الهيئة أعنى الزينة الواجبة التى لا رعونة فيها

وأما الرذائل المندرجة تحت رذيلتى العفة وهما الشره وكلال الشهوة فهى الوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتيكة والكزازة والمجانة والعبث والتحاشى والشكاسة والملق والحسد والشماتة *

وأما العدالة فهى حالة للقوى الثلاثة فى انتظامها على التناسب تحت الترتيب الواجب فى الاستعلاء مع الانقياد فليس هو جزءاً من الفضائل بل هو عبارة عن جملة الفضائل فانه مهما كان بين الملك وجنوده ورعيته ترتيب محمود بكون الملك بصيرا قاهراً وكون الجنود ذوى قوة وطاعة وكون الرعية ضعفاء سلسى القياد قيل ان العدل قائم فى البلد ولن ينتظم العدل بأن يكون بعضهم بهذه الصفات دون كلهم كذلك العدل فى مملكة البدن بين هذه الصفات والعدل فى أخلاق النفس يتبعه لامحالة العدل فى المعاملة والسياسة ويكون كالمتفرع منه ومعنى العدل الترتيب المستحسن إما فى الأخلاق وإما فى حقوق المعاملات وإما فى أجزاء مابه قوام البلد ، والعدل فى المعاملة وسط بين رذيلتى الغبن والتغابن وهو أن يأخذ ماله أخذه ويعطى ماله اعطاؤه والغبن أن يأخذ ماليس له والتغابن أن يعطى فى المعاملة ماليس عليه حمد ولا أجر ، والعدل فى السياسة أن يرتب اجزاء

المدينة الترتيب المشاكل لترتيب أجزاء النفس حتى تكون المدينة فى ائتلافها وتناسب أجزائها وتعاون أركانها على الغرض المطلوب من الاجتماع كالشخص الواحد فيوضع كل شيء موضعه وينقسم سكانه الى مخدوم لا يخدم والي خادم ليس بمخدوم والى طبقة يَخدمون من وجه ويُخدَمون من وجه كما يكون فى قوى النفس فان بعضها مخدوم لا يخدم كالعقل المستفاد، وبعضها خادم لا يخدم كالقوة الدافعة للفضلات، وبعضها خادم من وجه ومخدوم من وجه كالمشاعر الباطنة ولا يكتنف العدل رذيلتان بل رذيلة الجور المقابل له إذ ليس بين الترتيب وعدم الترتيب وسط، وبتمثل هذا الترتيب والعدل قامت السموات والأرض حتى صار العالم كله كالشخص الواحد متعاون القوى والاجزاء مترتب التقدم والتأخر بتقديم المقدم الحق وتأخير المؤخر الحق جلت عظمته وعظمت قدرته*

وشرح ذلك الترتيب من الروحانى المطلق والجسمانى المطلق وما بين الروحانى والجسمانى وتقسيم العالم الى مؤثر لا يتأثر كالعقول والي متأثر لا يؤثر كالأجسام والى متأثر مؤثر كالنفوس فانها تقبل من العقول وتوصل الى السماوات وكل ذلك بتقدير العزيز العليم جل جلاله وعظم برهانه وتم سلطانه* فالعدالة جامعة لجميع الفضائل والجور المقابل لها جامع لجميع

الرذائل * والله ولىّ التوفيق الى الصراط المستقيم الذى هو الوسط بين طرفى الافراط والتفريط حتى اذا حصل ذلك كله كمل كما لايقربه الى الله تعالى تقريبا بالرتبة بحسب قرب الملائكة المقربين من الله فلله البهاء الأعظم والكمال الأتم : وكل موجود فمشتاق الى الكمال الممكن له وهو غايته المطلوبة فان ناله التحق بأفق العالم الذى هو فوقه وإن حرم عنه اُطرح الى الحضيض الذى تحته: فالانسان بين أن ينال الكمال فيلتحق فى القرب من الله بأفق الملائكة وذلك سعادته أو يقبل على ماهو مشترك بينه وبين البهائم من رذائل الشهوة والغضب فينحط الى درجة البهائم ويهلك هلاكا مؤبداً وهو شقاوته أعاذنا الله منها بفضله *

﴿ بيان مثال القلب بالاضافة الى العلوم ﴾

اعلم أن مثال القلب الذى هو عبارة عن الرّوح المدّبر لجميع الجوارح المخدوم من جميع القوى والأعضاء بالاضافة الى حقائق المعلومات كالمرآة بالاضافة الي صور المتلونات فكما أن للمتلون صورة ومثالا لتلك الصورة ينطبع فى المرآة ويحصل فيها فكذلك لكل معلوم حقيقة وتلك الحقيقة صورته فتنطبع فى المرآة أعنى مرآة القلب فتتضح فيه وكما أن المرآة غير وصورة الأشخاص غير وحصول مثالها فى المرآة

غيره فهى ثلاثة أمور ويحتاج الى أمر رابع وهو نور بواسطته تنكشف الصورة فى المرآة وتظهر فكذلك ههنا أربعة أمور القلب، وحقائق الأشياء، وحصول نقش الحقائق فى القلب وحضوره فيه: ونور به تنكشف الحقائق فى القلب وهو فى الشرع عبارة عن جبريل عليه السلام: وفى عبارة الحكماء عبارة عن العقل بواسطته تفيض العلوم على الأرواح البشرية فالعالم عبارة عن القلب الذى يحل فيه مثال حقائق الاشياء: والعلم عبارة عن حصول المثال فى المرآة: والنار والشماع عبارة عن الملك الموكل بافاضة العلوم على القلوب البشرية وكما أن المرآة لاتنكشف فيه الصور لخمسة أمور: أحدها لنقصان صورته كجوهر الحديد قبل أن يدوّر ويشكل ويصقل والثانى لخبثه وصدئه وكدورته وان كان تام الشكل: والثالث لكونه معدولا به عن جهة الصورة الى غيرها كما اذا كانت الصورة وراء المرآة: والرابع لحجاب مرسل بين المرآة والصور والخامس الجهل بالجهة التى فيها الصورة المطلوبة حتى يتعذر بسببه أن يحاذى بها شطر الصورة وجهتها فكذلك القلب مرآة مستعدة لأن يتجلى فيه حقيقة الامور كلها وانما خلت القلوب عنها لهذه الأسباب الخمسة*

أولها نقصان فى ذاته كقلب الصبى فانه لايتجلى فيه

حقائق المعلومات لنقصانه أو كروح ناقص فى أصل الفطرة فان النفوس وان كانت نوعا واحدا ولكن فى هذا النوع تفاوت عظيم وعرض واسع *

والثانى لكدورة المعاصى والخبث الذى تراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات فان ذلك يمنع صفاء القلب وجلاءه فيمنع ظهور الحق فيه كالشمس التى ينكسف بعضها أو كلها فيذهب نورها وبهاؤها بقدر ظلمتها ، واليه الاشارة بقوله عليه السلام « من قارب ذنبا فارقه عقل لا يعود اليه أبدا » أى حصل فى قلبه كدورة لا يزول أثرها أبدا اذ غايته أن يُتْبِعَها بحسنة تمحوها فلو جاء بالحسنة ولم تتقدم السيئة لزاد لامحالة اشراق نور القلب فلما تقدمت السيئة سقطت فائدة الحسنة لكن عاد القلب بها الى ما كان قبل السيئة ولم يزدد بها فالاقبال على طاعة الله تعالى والاعراض عن مقتضى الشهوات هو الذى يجلو القلب ويصفيه ـ ولهذا قال تعالى (والّذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) وقال عليه الصلاة والسلام « من عمل بما علم ورّثه الله علم مالا يعلم »

الثالث أن يكون معدولا به عن جهة الحقيقة المطلوبة فان قلبَ المطيع الصّالح وان كان صافياً فانه ليس يتضح فيه جليّة الحق لانه ليس يطلب الحق وليس يحاذى بمرآته شطر

المطلوب بل ربما يكون مستوعب الهمّ بتفصيل الطاعات البدنية أو تهيئة أسباب المعيشة ولا يصرف فكره الي التأمل فى الحضرة الربوبيّة والحقائق الخفية ولا ينكشف له إلا ماهو متفكّر فيه من دقائق آفات الأعمال وخفايا عيوب النفس إن كان متفكراً فيها أو مصالح المعيشة ان كان متفكراً فيها واذا كان تقيّد الهمّ بالطّاعات وتفصيلها مانعاً عن انكشاف جلية الحق فما ظنك فى صرف الهم الى الشهوات واللذات الدنيوية وعلائقها وزخارفها فكيف لا يمنع عن الكشف الخفيّ *

الرابع الحجاب فان المطيع القاهر لشهواته المتجرّد للفكر فى حقيقة من الحقائق قد لا ينكشف له ذلك لكونها محجوبة عليه باعتقاد سبق اليه فى ضد الحق منذ الصبي على سبيل التقليد، والقبول بحسن الظن يحول ذلك بينه وبين حقيقة الحق ويمنع من أن ينكشف فى قلبه خلاف ماتلقّفه من ظاهر التقليد *

وهذا أيضاً حجاب عظيم به حُجِبَ أكثر المتكلمين والمتعصّبين للمذاهب بل أكثر الصالحين المتفكرين فى ملكوت السماوات والأرض لأنهم محجوبون باعتقادات تقليدية جَمَدت فى نفوسهم ورسخت فى قلوبهم وصارت حجابا بينهم وبين درك الحقائق *

الخامس الجهل بالجهة التى منها يقع العثور على المطلوب فان طالبَ العلم ليس يمكنه أن يحصّل العلم بالمجهول إلا بتذكر العلوم التى تناسب مطلوبه حتى اذا تذكرها ورتبها فى نفسه ترتيبا مخصوصا يعرفه العلماء استخرج مطلوبه بطريق الاعتبار وتحصيل المجهول من المعلوم الذى سبق وهذا هو القانون المنطق *

فان المنطق آلة قانونية تعصمه مراعاتها من أن يضل فى فكره فاذا حكّم القوانين وطرق التفكر فعند ذلك يعثر على جهة المطلوب فتتجلّى حقيقة المطلوب لقلبه فان العلومَ المطلوبة ليست فطرية لاتحتاج الي تجشم الاستدلال والنظر والاعتبار بل لاتُقتنص إلا بشبكة العلوم الحاصلة فكلّ علم نظرى لايحصل إلاعن علمين سابقين يأتلفان ويزدوجان على وجه مخصوص وشكل معلوم من الأشكال القياسية حمليا أوشرطياً متصلا أومنفصلا فيحصل من أزدواجهما علم ثالث يسمى النتيجة عند حصولها والمطلوب قبل حصولها * فالجهل بتلك الأمور وبتلك المقدّمات وبكيفية الازدواج والترتيب المفضى الى المطلوب تصوراً أوتصديقا هومانع من العلم *

وهكذا كالمرآة اذا لم تحاذها شطرَ الصورة فلا يقع فيها الصورة وكذلك اذا حُرِفَ عن جهة الصورفى اقتناص

العلوم طرق عجيبة وازورارات وتحريفات خفيـة أعجب مما ذكرنا فى المرآة ويعزّ على بسيط الأرض من يهتـدى الى كيفية الحيـلة فى تلك الازورارات ـ فهـذه هى الأسباب المانعة للقلوب من معرفة حقائق الأمور وإلا فكل قلب هو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق وان كان بينها تفاوت كثير لأنه أمر ربانى شريف كما ذكرناه فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصية والشرف ، واليـه الاشارة بقوله تعالى (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الأنسان) إشارة الي أن له خاصيّةً تميز بها عن السماوات والأرضين والجبال بهاصار مطيقا لحمل أمانة الله تعالى ـ وتلك الأمانة هى المعرفة والتوحيد: وقلب كل آدمى مستعد للأمانة ومطيق لها فى الأصـل ولـكن يثبّطها عن النهوض باعبائها والوصول الى تحقيقها الأسباب التى ذكرنا ولذلك قال عليه الصلاة والسلام (كلّ مولود يولد على الفطرة فابواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه) وقول رسول الله صلى الله عليـه وسلم (لولا الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا الى ملكوت السماء) اشارة الى بعض هذه الأسباب التى هى الحجاب بين القلب وبين الملـكوت *

وفى الخبر قال الله تعالى «لم يسَعْنى أرضى وسمائى ووسعنى

قلب عبدى المؤمن اللين الوديع» وفى الخبر أنه قيل مَنْ خيرُ الناس فقال كل مؤمن محموم القلب فقيـل وما محموم القلب فقال هو التقى النقى الذى لاغشّ فيه ولا بغى ولا غلّ ولا حسد ولذلك قال عمر رضى الله عنه رأى قلبي ربّى اذا كان قد رفع الحجاب بالتقوى ومن ارتفع الحجاب بينه وبين قلبه تجلى صورة الملك والملـكوت فى قلبه فيرى جنة عرضها السموات والأرض بل أكثر سعةً من السماوات والأرض فان الجنة وان كانت واسعةَ الأطراف متباعدةَ الاكناف فهى متناهية وأما عالم الملـكوت وهى معرفة الحقائق والأسرار الغائبة عن مشاهدة الابصار المخصوصة بادراك البصر فلانهاية لها *

نعم الذى يلوح للقلب منه أيضاً مقدارٌ متناهٍ ولـكنه فى نفسه بالاضافة الى علم الله تعالى لانهاية له: وجملة عالم الملك والملـكوت اذا أخذت دفعة واحدة يسمى الحضرة الربوبية لأن الحضرة محيطة بكل الموجودات إذليس فى الوجود شيء سوى الله وأفعاله ومملـكته وعبيده من أفعاله فما يتجلى من ذلك للقلب هو الجنة بعينه عند قوم وهو سبب استحقاق الجنة عند أهل الحق وتكون سعةُ ملـكه فى الجنة بحسب سعة معرفته وبمقدار ما تجلى له من الله تعالى وصفاته وأفعاله وانما مراد الطاعات وأعمال الجوارح كلها تصـفية القلب وتزكيته

وجلاؤه، ومراد تزكيته حصول أنوار المعارف فيه وهو المراد بقوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) وبقوله تعالى (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه) *

نعم هذا له مراتب فيها تتفاوت العلماء والحكماء: وكل واحد له مقدار معلوم، وغايته درجة الأنبياء الذين تتلألأ أنوار الحقائق فى قلوبهم وينكشف لهم اسرار الملك والملكوت فى صفائح أرواحهم على أتم ظهور وأجلى بيان: وفقنا الله لاتباعهم فى جميع أفعالهم وأحوالهم وأخلاقهم *

﴿ بيان أمثلة القلب مع جنوده وله ثلاثة أمثلة ﴾

الأول تقول مثل نفس الانسان فى بدنه كمثل والٍ فى مدينته ومملكته فان البدن مملكة النفس وعالمه ومستقره ومدينته * وقواه وجوارحه بمنزلة الصناع والعملة: والقوة العقلية المفكرة له كالمشير الناصح والوزير العاقل: والشهوة له كعبد سوءٍ يجلب الطعام والميرة الى المدينة: والغضب والحمية له كصاحب شرطة والعبد الجالب للميرة كذاب مكار مخادع خبيث يتمثل بصورة الناصح وتحت نصحه الشر الهائل والسم القاتل وديدنه وعادته منازعة الوزير الناصح فى كل تدبير يدبره حتى لا يخلو من منازعته ومعارضته فى آرائه ساعة فكما أن الوالى

فى مملكته متى استشار فى تدبيراته لوزيره معرضا عن اشارة
العبد الخبيث بل يستدل باشاراته على أن الصواب فى نقيض
رأيه وأدب صاحب شرطته وأسلسه لوزيره وجعله مؤتمرا
له مسلطا من جهته على هذا العبد الخبيث وأتباعه وأنصاره
حتى يكون العبد مسوساً لاسايساً ومأموراً مدبرا لاآمرا
مدبراً استقام أمر بلده وانتظم العدل بسببه فكذلك النفس
متى استعانت بالعقل وأدبت القوة الغضبيـة وسلطتها على
الشهوة واستعانت باحديهما على الاخرى فتارة بأن تقلل
من تيه الغضب وغلوائه بخلابة الشهوة واستدراجها وتارة
بقمع الشهوة وبقهرها بتسليط القوة الغضبية عليها وتقبيح
مقتضياتها اعتدلت قواه وحسنت أخلاقه: ومن عدل عن هذا
الطريق كان كمن قال الله سبحانه فيه (أفرأيت من اتخذ الهه
هواه وأضله الله على علم) وقال تعالى (واتبع هواه فمثله كمثل
الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) وقد ذكرنا
كيفية تهذيب هذه الجنود فى الفصل المتقدم *

المثال الثانى ان البدن كالمدينة: والعقل اعنى القوة المدركة
كملك مدبرلها: وقواه المدركة من الحواس الظاهرة والمشاعر
الباطنة كجنوده: وأعوانه وأعضاؤه كرعية: والنفس الأمارة
بالسوء التى هى الشهوة: والغضب كعدو ينازعه فى مملكته

ويسعى فى إهلاك رعيته فصار بدنه كرباط وثغر ونفسه كمقيم فيه مرابط فان جاهد عدوه فهزمه وقهره على مايجب حُمدَ أثره اذا عاد الى الحضرة كما قال تعالى (فضَّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة)

وان ضيع ثغره وأهمل رعيته ذُم أثره وانتقم منه عند لقاء الله تعالى فيقال له يوم القيامة ياراعى السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم تؤوِ الضالة ولم تجبر الكسير اليومَ أنتقم منك كما ورد فى الخبر - والى هذه المجاهدة أشاروا بقولهم «رجعنا من الجهاد الأصغر الي الجهاد الأكبر»

المثال الثالث: مَثل العقل مَثلُ فارس متصيد وشهوته كفرسه، وغضبه ككلبه، فمتى كان الفارس حاذقا وفرسه مروضا وكلبه مؤدبا معلما كان جديرا بالنجح: ومتى كان هو فى نفسه أخرقَ وكان الفرس جموحا والكلب عقورا فلا فرسه ينبعث تحته منقادا ولا كلبه يسترسل باشارته مطيعا فهو خليق بأن يعطب فضلا من أن لا ينال ماطاب وانما خرق الفارس مثل جهل الانسان وقلة حكمته وكلال بصيرته،

وجماح الفرس مَثَلٌ لغلبة شهوته خصوصا شهوة البطن والفرج، وعقر الكلب مَثَلٌ لغلبة الغضب واستيلائه وغلوائه وزعارته *

(بيان أن النفس قد تحتاج الى البدن وقد لاتحتاج اليه)

اعلم أن القوى الحيوانيـة قد تعينُ النفس الناطقة فى أشياء منها أن يورد الحس عليها الجزئيات فيحدث لها من الجزئيات أمور أربعة *

أحدها انتزاع النفس الكليات المفردة عن الجزئيات على سبيل تجريد لمعانيها عن المادة وعن علائق المادة ولواحقها ومراعاة المشترك فيه والمتباين به، والذاتى وجوده ،والعرضى وجوده فيحدث للنفس عن ذلك مبادى التصور عن استعمالها الخيال والوهم مثل الجنس والفصل والعرض العام والعرض الخاص *

والثانى ايقاع النفس مناسبات بين هذه الكليات المفردة على مثال سلب وايجاب فما كان التأليف فيـه ذاتيا بينا بنفسه أخذه ،وما كان ليس كذلك تركه الى مصادفة الواسطة *

الثالث تحصيل المقدمات التجربية وهو أن يوجد بالحس محمول لازم الحكم لموضوع ما كان حكمه بالايجاب والسلب أو تالٍ موجب الاتصال أو مسلوبه أو موجب العناد أو مسلوبه وليس ذلك فى بعض الأحايين دون بعض على المساواة بل دائما حتى تسكن النفس على أن طبيعة هذا المحمول أن يكون فيه هذه النسبة الي هـذا الموضوع : والتالى أن يلزم هذا

المقدم أو ينافيه لذاته لا بالاتفاق فيكون ذلك اعتقادا حاصلا من حس وقياس - أما الحس فلاجل مشاهدة ذلك - وأما القياس فلأنه لو كان اتفاقا لما وجد دائما أو فى الاكثر وهذا كالحكم بان السقمونيا مسهل للصفراء بطبعه لاحساسنا ذلك كثيرا وبقياسنا انه لو كان لا على الطبع بل بالاتفاق لوجد فى بعض الأحايين *

الرابع الاخبار التى يقع بها التصديق لشدة التواتر فالنفس الانسانية تستعين بالبدن لتحصيل هذه المبادى للتصور والتصديق : ثم اذا حصلتها رجعت الى ذاتها فان تعرض لها من القوى التى دونها بان يشغلها شغلته عن فعله وأضرت بفعله الا فى أمور تحتاج فيها اليها النفس خاصة بان تعود الى القوى الخيالية مرة أخرى لاقتناص مبدأ غير الذى حصل أو معاونة باحضار خيال وهذا يقع فى الابتدا كثيرا ولا يقع بعده الا قليلا *

وأما اذا استكملت النفس وقويت فانها تنفرد بأفاعيلها على الاطلاق ويكون القوى الخيالية والحسية وسائر القوى البدنية غير صارفة لها عن فعلها بل شاغلة لها *

ومثال ذلك إن الانسان قد يحتاج الى دابة وآلات ليتوصل بها الى المقصد فاذا وصل اليه ثم عرض من الاسباب

ما يحول عن مقارنته صار السبب الموصل بعينه عائقا *

* بيان أن هذه القوى كيف يرأس بعضها بعضاً وكيف *
« يخدم بعضها بعضاً »

فانك تجد العقل المستفاد رئيسا مطلقا ويخدمه الكل وهو الغاية القصوى : ثم العقل بالفعل يخدمه العقل بالملكة والعقل الهيولانى لما فيه من الاستعداد يخدم العقل بالملكة ثم العقل العملى يخدم جميع هذا لأن العلاقة البدنية لأجل تكميل العقل النظرى : والعقل العملى هو مدبر تلك العلاقة : ثم العقل العملي يخدمه الوهم، والوهم يخدمه قوتان قوة بعده وقوة قبله *

فالقوة التى بعده هى القوة التى يحفظ ما أداه الوهم، والقوة التى قبله هى جميع القوى الحيوانية : ثم المتخيلة يخدمها قوتان مختلفتان المأخذ * فالقوة النزوعية تخدمها بالائتمار لأنها تبعثها على التحريك * والقوة الخيالية تخدمها بقبول التركيب والتفصيل فيما فيها من صورها * ثم هذا رئيسان لطائفتين أما القوة الخيالية فيخدمها بنطاسيا، وبنطاسيا يخدمها الحواس الخمس ـ وأما القوة النزوعية فتخدمها الشهوة والغضب، والشهوة والغضب تخدمها القوة المحركة بالفعل والى ههنا تنتهى القوى الحيوانية : ثم القوى الحيوانية بالجملة تخدمها النباتية *

وأوّلُها وأرأسها المولدة: ثم المربية تخدم المولدة: ثم الغاذية تخدمها جميعا : ثم القوى الطبيعية الأربع تخدم هذه وهى الهاضمة وتخدمها من جهة الماسكة ومن جهة الجاذبة وتخدمها جميعها الدافعة وتخدم جميعها الكيفيات الأربع لكن الحرارة تخدمها البرودة وتخدم كليهما الرطوبة واليبوسة: وهناك آخر درجات القوى *

﴿ بيان أن الأرواح البشرية حادثة ﴾

حدثت عند استعداد النقطة لقبول النفس من واهبها كما قال الله تعالى (فاذا سوّيتهُ ونفختُ فيه من روحى) كما حدثت الصورة فى المرآة لحدوث الصقالة وان كان ذو الصورة سابق الوجود على الصقالة : وتلخيص البرهان ان الارواح لو كانت موجودة قبل الأبدان لكانت إما كثيرة وإما واحدة وباطل وحدتها وكثرتها فباطل وجودها : وانما استحال وحدتها لأنها بعد التعلق بالأبدان إما أن تبقى على وحدتها أو تكثرها ومحال وحدتها و كثرتها فمحال وجودها وانما استحال وحدتها بعد التعلق بالأبدان لعلمنا ضرورة بأن مايعلمه زيد يجوز أن يجهله عمرو ولو كان الجوهر العاقل منهما واحدا لاستحال اجتماع المتضادين فيه كما يستحيل فى زيد وحده ونحن نعنى بالروح العاقل كما ذكرنا ومحال كثرتها لأن الواحد انما

لا يستحيل أن يتثنى وأن ينقسم اذا كان ذا مقدار كالأجسام فالجسم الواحد ينقسم فانه ذو مقدار فله بعض فيتبعض أما ما لا بعض له ولا مقدار فكيف ينقسم - أما تقدير كثرتها قبل التعلق بالأبدان فمحال لأنها إما أن تكون متماثلة أو مختلفة وكل ذلك محال وانما استحال التماثل لأن وجود المثلين محال فى الاصل ولهذا يستحيل وجود سوادين فى محل واحد وجسمين فى مكان واحد لأن الاثنينية تستدعى مغايرة ولا مغايرة ههنا وسوادان فى محلين جائز لأن هذا يفارق ذلك فى المحل اذا اختص هذا بمحل لا يختص به الآخر وكذلك يجوز سوادان فى محل واحد فى زمانين اذ لهذا وصف ليس للآخر وهو الافتراق بهذا الزمان الخاص فليس فى الوجود مثلا مطلقا بل بالاضافة كقولنا زيد وعمر مثلان فى الانسانية والجسمية: وسواد الحبر والغراب مثلان فى السوادية ومحال تغايرها لأن التغاير نوعان *

أحدهما باختلاف النوع والماهية كتغاير النار والماء وتغاير السواد والعلم *

الثانى بالعوارض التى لا تدخل فى الماهية كتغاير الماء الحار للماء البارد فان كان تغاير الأرواح البشرية بالنوع والماهية فمحال لأن الارواح البشرية متفقة بالحد والحقيقة وهى نوع

واحـد لأن الحد وهو الحيوان الناطق يشملها وان كانت متغايرة بالعوارض فمحال لأن الحقيقـة الواحدة انما تتغاير عوارضها اذا كانت متعلقة بالأجساد منسوبة اليها بنوع مّا ولا تعلق لها بالأجسام قبل وجود الأبدان فكان الاختلاف محالا اذ الاختلاف فى أجزاء الجسم ضرورة ولوكان فى القرب من السماء والبعـد منه مثلا : أما اذا لم يـكن كذلك كان الاختلاف والتغاير محالا وهذا ربما يحتاج تحقيقه إلي مزيد بيان ولـكن فى هذا القدر تنبيه عليه *

فان قيل فـكيف تـكون حال الأرواح بعـد مفارقة الأجسام ولا تعلق لهـا بالاجسام فكيف تكثرت وتغايرت

فالجواب أن تقول لأنها اكتسبت بعد التعلق بالأبدان أوصافا مختلفة من العلم والجهل والصفاء والـكدورة وحسن الأخلاق وقبحها فبقيت بسببها متغايرة فعقلت كثرتها بخلاف ما قبل الاجساد فانه لاسبب لتغايرها فقد اتضح أن النفس تحدث كما تحدث مادة بدنية صالحة لاستعمالها إياها ويكون البدن آلة ومملـكة لها ويكون للنفس الحـادثة فى جوهرها هيئة نزاع طبيعى الى الاشتغال بذلك البدن خاصة والاهتمام بأحواله والانجـذاب اليه وتلك الهيئـة تكون مقتضية لاختصاصها بذلك البدن ولا بد أن تكون مناسبة له مناسبة

خاصة لصلوح سياسة بدن خاص دون آخر وان خفيت علينا تلك المناسبة بعينها فان تلك المناسبات غير محصورة ولا ظاهرة والله سبحانه وتعالى يتولّى أسرارها وسرائرها *

فان قيل لا نسلم بأن النفوس الانسانية متفقة فى النوع والمعنى ولسنا نسلم أن الانواع انما تتكثر من جهة النسبه إلى المادة والمكان والزمان فحسب بل الماديات انما تتكثر بالمقادير والكائنات الزمانية : والنفوس الانسانية ليست بمادية فى ذواتها وانما نسبتها الى المادة بوجه التدبير والتصرف لا بوجه الانطباع فى المادة حتى يستدعى مكانا مميزاً وزمانا مميزاً والتدبير والتصرف لا يوجب تعدداً ذاتيا فان الواحد يجوز أن يكون متصرفا فى أشياء والعددُ الكثير يجوز أن يكون متصرفا فى شىء واحد فهذه النسبة لذاتها لا توجب الكثرة فى الذات *

قلنا الدليل على أن النفوس الأنسانية متفقة النوع ما ذكرناه وهو أن حد الانسان يشملها وهو الحىّ الناطق وما شمله حد النوع فهو متفق فى النوع ، والدليل على أن أسباب التكثر ماذكرته أن الاشياء التى ذواتها حقائق فقط انما تكثرها بالحوامل والقوابل والمنفعلات عنها أو بنسبة ما اليها وإلى أزمنتها فقط فاذا كانت مجردة لم تقترن بذلك فمحال أن يكون

بينهما مغايرة وتكثر*

وأما قولهم إن النفس الانسانيـة ليست بمادية فتمايز بالمادة فسلم لـكنها ذات نسبة الى المادة أيّ نسبة كانت وان لم تكن نسبة الانطباع فنسبة التدبير والتصرف وهذه النسبة مؤثرة فى التمييز كافية فيقال إن النفس الانسانية مَلك تلك المدينة الفاضلة *

فان قيل لانسلم إن الاسباب المـكثرة محصورة فيما ذكرتم من أقسام الحـوامل والقوابل والمنفعلات عنها أو النسبة اليها فما الدليل على الحصر أليست المفارقات متغايرة الذوات والحقائق ولا حوامل لها ولا قوابل ولا مكان ولا زمان وانما تمايز وتتغاير بحقائقها الذاتية وانما نوعها فى شخصها أعنى فى ذاتها فهلا قلتم فى النفوس الانسانيـة انها تتغاير بخواصها أو بأمر آخر سوى الحوامل أليست النفوس بعد المفارقة تتغاير بالعدد: وتقولون إنها تتغاير بما اكتسبت من الابدان من الاخلاق والعلوم وقلتم يكفيها فى التميز هيئة انها كانت نفس البدن الفلانى ولئن كان هذا القدر كافيا فى التمييز فهلا كان كافيا فى التمييز هيئة انها ستكون نفس البدن الفلانى فان الانطباع فى البدن ليس بشرط *

قلنا فى المفارقات قد قام الدليل على انها متغايرة الحقائق

أما النفوس البشرية فيشملها حد واحد كما ذكرنا وانما يمكن وجودها وتعددها بعد المفارقة بهيئات وأخلاق اكتسبت من الأبدان وقبل الاتصال بالبدن لا يمكن أن تكتسب من الأبدان شيئا إذ لا أبدان: ومالا يكون ليس له تأثير فانا نعلم قطعا انها بعد الاتصال بالبدن انما تكمل بمعاونة البدن وتكتسب فضائل ورذائل من العلاقة البدنية فقبل البدن لا علاقة فلا اكتساب فلا تغاير فثبت انها تحدث مع البدن *

فان قيل أحلتم وجود النفوس البشرية قبل الأبدان ببيان ما ذكرتم من انها لا تتصور قبل الأبدان ونحن نورد اشكالين واقعين على نحو وجودها متصلة بالأبدان وحادثة مع حدوث الأبدان وذلك لأنه من المسلم بيننا ان النفوس الانسانية ليست مادية ولا منطبعة فى مادة وما هذا سبيله فليس حدوثه على تدريج شئ بعد شئ أو زمان بعد زمان بل يكون وجوده ابداعيا محضا ووجود البدن ليس بابداعى محض بل على تدريج شئ بعد شئ واستحالة جزء بعد جزء فاى جزء بعينه انتهت النوبة اليه فى الاستحالة حتى يحدث عنده النفس ويتصل به وليس جزأ بعينه الا ويمكن حدوث النفس قبله بلحظة أو بعده بلحظة: ولو قلتم انها تحدث عند كمال الاستعداد فيقال وكمال الاستعداد ليس يحصل بغتة ودفعة بل على تدريج

كمال بعد كمال وقد بان انها كمال واحد يحصل ابداعا لاتدريج فيه : ثم ان الاستعداد وكمال الاستعداد انما يشترط فيما هو صورة مادية أعنى منطبعة فى المادة فيكون الاستعداد سببا مّا بوجه مّا لحصول الصورة فيه من واهب الصوّر ولا يشترط ذلك فى النفوس التى ليست منطبعة فى مادة اصلا ولا علاقة بينهما وبين القوى المادية إلا علاقة التدبير والتصرف فى المملكة فالتصرف فيه كيف يكون سببا لوجوب المتصرف المدبر فيه والمدبر أولى بان يكون متقدما فى الوجود على المملكة واشتراط الاستعداد لقبول الصورة حتى توجد الصورة فى المستعد غيرهُ واشتراط الاستعداد لقبول تصرف النفس غيرهُ فان الاستعداد الأول يصلح سببا لوجود النفس بوجه مّا والاستعداد الثانى لايصلح سبباً لوجود النفس بوجه مّا بل هو سبب لقبول تصرفه فيه إما ليفيده كمالا او ليستفيد منه فائدة وهذا إشكال عظيم *

فالجواب عنه كلمة واحدة فان العلم نكتة واحدة كثرها الجهل : فنقول لا ارتياب فى ان النفوس إبداعيةٌ وانها ليست منطبعة فى المادة وانما تحدث من مبدعها عند كمال الاستعداد الذى عبرّ عنه فى التنزيل بقوله فاذا سوّيته ، ومبدِعُها أعلَمُ بكمال الاستعداد وليس فى طاقة القوى البشرية الاحاطة

بتفاصيل الاستعدادات ولكن على الجملة نعلم أن الصوّر
تفيض من مبدعها، واهبها كما يقتضيها جود الجواد المحض عن
كمال العلم المحيط بتفاصيل المعلومات فيعطى كلاً مستحق ما
يستحقه وكل قاصر ما يكمله بل ماهيّات الاشياء واستعداداتها
من جوده الفيّاض بواسطة الاسباب المعطية للاستعدادات
الخاصة من الأجرام العنصرية وامتزاجاتها وحركات السماوات
واجرامها وأشكالها وخواصّها وفيض العقول على النفوس
وافاضة النفوس طلبا للاستكمال تحريكا للسماوات فالكل من
جود الجواد الحق الذى يعطى كل حقيقة وجودها وهو أعلم
بكمال الاستعداد وأى استعداد يستحق اى صورة : وعلوم
البشر قاصر عن ادراك ذلك واذا بلغ الكلام الى الله سبحانه
فينقطع سؤال لِمَ كما ينقطع مطلب ما لا يسأل عما يفعل
وهم يسئلون*

الاشكال الثانى إن النفوس اذا كانت متشابهة فى النوع
فائضة من واهب الصور وليس فى فيضانه اختلاف فمن اين
يجب ان يكون كل نفس حادثة ذات هيئة نزاعية طبيعية الى
الاشتغال ببدن مخصوص والاهتمام باحواله ومن اين يلزم أن
يكون لها مناسبة خاصة تصلح لسياسة بدن خاص دون بدن
فان كانت هذه الهيئة لازمة لذاتها فهى متخصصة بهذه الهيئة

قبل وجود البدن وان كانت هذه الهيئة تكتسب هذه الهيئة من البدن فكيف يسبق الموجبُ على الموجب وكيف تكون تلك الهيئة نزاعية طبيعيّة *

وجملة القول ان لم تكن هيئة مختصة فلم اختصّت ببدن دون بدن: وان كانت الهيئة طبيعيّة على حالتها فهى المخصّصة لذاتها بعد الاتفاق فى النوع وان كانت مكتسبة من خارج وهو إما هذا البدن او غيره فليتحقق لها وجود حتى تكتسب الهيئة المخصّصة وكل ذلك محال: ثم اختلاف المناسبات والهيئات تستدعى اختلاف الاسباب وواهب الصّور واحد فى ذاته أحدىُّ الافاضة فلا اختلاف هناك ولا تأثير لاختلاف الامزجة فى اختلاف هيئات النفوس اذ لا انطباع ولا حُلولَ ولا اتّصال بين المجرّدات وبين الامزجة بخلاف النفوس النباتيّة والنفوس الحيوانية والصور الجسمانيه والصور الطبيعية فان اختلاف النفوس والصّور لاختلاف موادّها وصورها مقدّرة على استعداداتها *

وحل هذا الاشكال أن تقول نعم ان المناسبات والهيئات المختلفة تستدعى اسبابا مختلفة : واسباب الاستعدادات الامتزاجات وأسباب الامتزاجات وجميع ما يحدث فى العالم العنصرى منوطة بالحركات السماوية وحتى الاختيارات

والارادات فانها لامحالة امور تحدث بعد مالم تكن ولكل حادث بعد ما لم يكن علة وسبب حادث وينتهى ذلك الى الحركة ومن الحركات الى المستديرة فجميع الاستعدادات تابعة للحركات السماوية ثم الحركات المستديرة مستندة الى اختيارات النفوس الفلكية والكلّ يستند الى العقل الالهى المستعلى على الكل الذى منه يَنْشعِب المقدورات . فالجود الالهى بواسطة العقول والنفوس : والحركات السماوية يعطى كلّ مادَة استعدادَها لصورة خاصة والنفوس لا تحدث بالاستعداد الخاص بل عند الاستعداد الخاص وفرق بين ان تحصل عنده او به *

ثم الهيئة النزاعية فى النفس انما يكون بعد الاتصال بها فاذاً حدوث النفس له صفة فى الفاعل وصفة فى القابل أما صفة الفاعل فالجود الالهى الذى هو ينبوع الوجود وهو فياض بذاته على كل ماله قبول الوجود حقيقة وجوده ويعبر عن تلك الصفة بالقدرة وان أضفت هذا الفيض الى الوسائط فواهب الصور *

ومثاله فيضان نور الشمس على كل قابل للاستنارة عند ارتفاع الحجاب بينهما : والقابل للاستنارة هى المتلونات دون الهواء الذى لالون له *

وأما صفة القابل فالاستواء والاعتدال الحاصل بالتسوية كما قال سوَّيته: ومثال صفة القابل صقالة الحديد فان المرآة التى ستر الصدأ وجهها لا تقبل الصورة وان كانت محاذية للصورة واذا اشتغل المصقل بتصقيلها فكلما حصلت الصقالة حدثت فيها الصورة من ذى الصورة المحاذية لها * فكذلك اذا حصل الاستواء والاستعداد فى النطفة حدثت فيها النفس من واهبها وخالقها من غير تغير فى الواهب بل انما حدث الروح الآن لاقبله لتغير المحل بحصول الاستواء الآن لاقبله كما أن الصورة فاضت من ذى الصورة على المرآة فى حكم الوهم من غير تغير فى الصورة ولكن كان لاتحصيل من قبل لأن الصورة ليست مهيئة لأن تنطبع فى المرآة لكن لأن المرآة لم تكن صقيلة *

فان قيل فاذا كانت الأرواح حادثة مع الاجساد فما معنى قوله صلى الله عليه وسلم « خلق الله الارواح قبل الاجساد بألفى عام » وقوله عليه السلام « أنا أول الانبياء خلقا وآخرهم بعثا » وقوله عليه السلام « كنت نبيا وآدم لمنجدل بين الماء والطين »

قلنا شىء من هذا لايدل على قدم الروح بل على حدوثه وكونه مخلوقا نعم ربما دل بظاهره على تقديم وجوده على الجسد

كما ظن جماعة من الحكماء وأمر الظواهر هين فان تأويلها ممكن والبرهان القاطع لا يُدرأ بالظواهر بل يسلط على تأويل الظواهر كما فى ظواهر الآيات المتشابهات فى حق الله تعالى *

أما قوله عليه السلام « خلق الله الأرواح قبل الاجساد » أراد بالارواح أرواح الملائكة وبالاجساد العالم من العرش والكرسى والسموات والكواكب والهواء والماء والارض وكما أن أجساد الآدميين بجملتهم صغيرة بالاضافة الى جرم الارض وجرم الارض أصغر من الشمس بكثير : ثم لا نسبة لجرم الشمس الى فلكه ولا لفلكه الى السماوات التى فوقه ثم كل ذلك اتسع له الكرسى إذ وسع كرسيه السموات والارض : والكرسى صغير بالاضافة الى العرش فاذا تفكرت فى جميع ذلك استحقرت أجساد الآدميين ولم تفهمها من مطلق لفظ الاجساد - فكذلك فاعلم وتحقق أن أرواح البشر بالاضافة الى أرواح الملائكة كأجسادهم بالاضافة الى أجساد العالم ولو انفتح لك باب معرفة الملكية لرأيت الأرواح البشرية كسراج اقتبس من نار عظيمة طبقت العالم وتلك النار العظيمة هى الروح الأخير من أرواح الملائكة ولأرواح الملائكة ترتيب وكل واحد منفرد برتبته ولا يجتمع فى مرتبة واحدة اثنان بخلاف الأرواح البشرية المتكثرة مع اتحاد

النوع أما الملائكة فكل واحد نوع برأسه وهو كل ذلك النوع — واليه الاشارة بقوله تعالى (وما منا الاّ له مقام معلوم) وبقوله عليه السلام إن الراكع منهم لايسجد والقائم لايركع وانه مامن واحد الا وله مقام معلوم فلا تفهمن اذاً من الأرواح والاجساد المطلقة الأرواح الملائكة وأجساد العالم *

وأما قوله عليه الصلاة والسلام «انا أوّل الانبياء خلقا وآخرهم بعثا» وقوله عليه السلام «نحن الآخرون السابقون» وقد قال عليه السلام «أول ماخلق الله القلم» وقال «أول ماخلق الله العرش» وقال «أول ما خلق الله جوهر محمد» صلى الله عليه وسلم وغير ذلك فكشف الغطاء عن هذا من وجوه تحت كل وجه فوائد لطيفة ولطائف من الحكمة قلّما تسطر فى الكتب *

الوجه الأول انا شاهدنا الموجودات كلها بشهادة الحس والعقل على ترتب وتفاضل فى النوع والشخص *

أما فى المركبات التى هى أقرب الى حواسنا فالمعادن والنباتات والحيوان والانسان على تفاضل وانتهى ذلك بالانسان وانتهى الانسان بالشخص الواحد الأفضل من الكل كالنبي فى زمانه والولى فى كل زمان *

وأما فى البسائط الجسمانية أعنى المتشابهة الاجزاء فهى

أيضاً على تفاضل فى الجوهر والحيز والعظم والحركة والا فضل من الكل الجرم الأقصى وهو الذى عبر عنه التنزيل بالعرش والكرسى الذى وسع السماوات والأرض *

وأما فى البسائط الروحانية أعنى المجردة عن المواد المنزهة عن المكان والزمان ففيها ترتب وتفاضل فما كان أشد قوة وأوسع علما وإحاطة وأبلغ فى الوحدة وأشبه بكمال الربوبية كان فى المقام الأعلى والمرتبة الأقصى ولابد أن ينتهى بواحد فان المترتبات المتفاضلات ان لم تنته بواحد أوجب ذلك الحكم بالتسلسل وذلك محال فالمترتبات فى كل قسم انتهت بواحد هو مبدؤها *

وربما يعبر لسان النبوة عن ذلك الواحد بانه أول ماخلق الله تعالى * فالروحانيات انتهت بروح القدس أو العقل الفعال أو شديد القوى ذو مرة فاستوى، وهو أول المبدعات ثم ينزل بالترتب والتفاضل كما قيل أول ماخلق الله عزوجل العقل ثم النفس ثم الهيولى أو ماروى فى الخبر: ان أول ماخلق الله عز وجل القلم ثم اللوح ثم الظلمة الخارجة *

وأما الجسمانيات (١) فقد انتهت بالجرم الأقصى وهو ماروى ان اول ما خلق الله العرش ثم الكرسى : وأما فى

---

(١) نسخة وأما الاجرام*

المركبات فقد انتهت بجوهر النبوة وأكملها وأفضلها جوهر محمد صلى الله عليه وسلم وذلك ماروى إن أول ما خلق الله تعالى جوهر محمد صلى الله عليه وسلم فقد وجدت لكل مقال مجالا ولكل مذهب محملا ومساغا: ثم الاولية فى كل صنف منها هل هى اولية بالزمان، أو أولية بالمكان، أو أولية بالذات أعنى العلة الفاعلية أو الكمالية فذلك مطلب آخر سهل التناول قريب المأخذ والمجتنى *

الوجه الثانى إن المبادى تساق الى الكمالات حتى لو لم يكن كمال لم يكن مبدأ كما لو لم يكن مبدأ لم يكن كمال وان المعقولات تظهر بالمحسوسات وكما أن كمال جلال الحق انما يظهر بافعاله وصنائعه كذلك الامر الحق انما يظهر بخلقه وكذلك العقل انما يظهر بالنفس : والنفس انما تظهر بالطبيعة: والطبيعة انما تظهر بالجسم الكلى - وكذلك جميع الموجودات انما يظهر بالانسان حتى يكون جسمه وطبيعته مظهر الجسم والطبيعة ونفسه وعقله مظهر النفس والعقل وتسليمه مظهر الامر الحق فيظهر به جلال البارى تعالي واكرامه *

ويصح ان يقال لولاك ما خلقت الافلاك فهو الخلاصة من الخليقة والصفوة من البرية وهو الكمال والغاية والسدرة المنتهى وهو أول ما خلق وآخر مابعث كما ذكره عليه السلام

الوجه الثالث ان الطبيعة المسخرة تؤثر فى اعداد المادة لقبول فيض الامر والعقل والنفس حتى يحصل فى المركبات باستصفاء العناصر واستخلاص اللباب من الموادّ وابتلاء الامشاج من المزاج طبقة بعد طبقة واستصفاء بعد استصفاء حتى يحصل فى المركبات الجزئية شخص فى مقابلة العقل الكلى بل هو شخص العقل او عقل مشخص وذلك هو نبيّ زمانه فيكون العود به كما كان البدأ اليه فيضاهى صاحبُ المبدأ صاحب الكمال وتكون النهاية هى الرجوع الى البداية ويكون اول الفكر آخر العمل : ويظهر معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم « نحن الآخرون السابقون »

الوجه الرابع كما ابتدأ الدين والشريعة من آدم عليه السلام واستكمل نوع كمال بنوح عليه السلام ، ونوع كمال بابراهيم عليه السلام ، ونوع كمال بموسى عليه السلام ، ونوع كمال بعيسى عليه السلام ، ونوع كمال بالمصطفى عليه السلام وابتدأ العود من المصطفى صلي الله عليه وسلم فى دار الجزاء ولذلك قال « أنا اوّل من ينشق عنه الارض وأنا العاقب وأنا الحاشر يحشر الناس على قدمى »

﴿ بيان بقاء النفس ﴾

ونذكر انها لا تموت بموت البدن : ثم نذكر انها لا تفنى

مطلقا: ونذكر برهانه من المنقول والمعقول *

أما المنقول فقوله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل احياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله) ومعلوم أن من كان حيا مرزوقا فرحا مستبشرا به لا يكون ميتا معدوما - وكذلك قوله تعالى (ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله اموات بل احياء) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ارواح الشهداء فى حواصل طير خضر تسرح فى رياض الجنة » وقد ترسخ فى جميع عقائد اهل الاسلام هذا فان رسولَ المغفرة والرحمة لمن يكون باقيا لا لمن يكون فانيا - وكذلك اهداء الصدقة فاعتقادهم انها تصل اليه : وكذلك المنامات فكل ذلك دليل على انها باقية *

وقد ذكرنا ان النفس ليست منطبعة فى البدن بل لها العلاقة مع البدن بالتصرف والتدبير: والموت انقطاع تلك العلاقة أعنى تصرفاتها وتدبيراتها عن البدن: وانما يموت الروح الحيوانى وهو بخار لطيف ينشأ من القلب ويتصاعد الى الدماغ ومن الدماغ بواسطة العروق الى جميع البدن وفى كل موضع ينتهى اليه يفيد فائدة من الحواس الظاهرة والمشاعر الباطنة فذلك الروح لا يبقى واذا بطل ذلك الروح بطل ما يتبعه من الحواس الظاهرة والباطنة والقوى المحركة *

أما البرهان العقلى فلأن كل شئ يفسد بفساد شئ آخر فهو متعلق به نوعا من التعلق وكل متعلق بشىء آخر نوعا من التعلق فاما أن يكون تعلقه به تعلق المكافئ فى الوجود أو تعلق المتأخر عنه فى الوجود أو تعلق المتقدم عليه فى الوجود الذى هو قبله فى الذات لا فى الزمان * فان كان تعلق النفس بالبدن تعلق المكافئ فى الوجود وذلك أمر ذاتى له لا عرضى فكل واحد منهما مضاف الذات الى صاحبه فليس لا النفس ولا البدن بجوهر ولكنهما جوهران *

وإن كان ذلك أمراً عرضيا لا ذاتيا فان فسد أحدهما بطل العارض الآخر من الاضافة ولم يفسد الذات بفساده * وإن كان تعلقه به تعلق المتأخر عنه فى الوجود فالبدن علة للنفس فى الوجود والعلل أربع ـ فاما أن يكون البدن علة فاعلية للنفس معطية لها الوجود ـ وإما أن يكون علة قابلية لها بسبيل التركيب كالعناصر للأبدان أو بسبيل البساطة كالنحاس للصنم ـ وإما أن يكون علة صورية وإما أن يكون علة كمالية ومحال أن يكون علة فاعلية فان الجسم بما هو جسم لا يفعل شيئا وانما يفعل بقواه ولو كان بذاته يفعل لا بقواه لكان كل جسم يفعل ذلك الفعل *

ثم القوى الجسمانية كلها إما أعراض وإما صور مادية

ومحال أن يفيد الأعراض أو الصور القائمة بالمواد وجود ذات قائمة بنفسها لا فى مادة ووجود جوهر مطلق، ومحال أيضا أن يكون علة قابلية فقد برهنا وبينا أن النفس ليست منطبقة فى البدن بوجه من الوجوه فلا يكون اذاً البدن متصوّراً بصورة النفس لا بحسب البساطة ولا على سبيل التركيب بأن يكون جزءاً من أجزاء البدن يتركب فتحدث النفس، ومحال أن تكون علة صورية للنفس أو كمالية فان الأولى أن يكون الأمر بالعكس فاذا ليس تعلق النفس بالبدن تعلق معلول بعلة ذاتية *

نعم البدن والمزاج علة بالعرض للنفس فانه اذا حدث بدن يصلح أن يكون آلة لنفس ومماسكة له أحدثت العلل المفارقة النفس الجزئية أو حدث عنها ذلك فان احداثها بلا سبب يخصص إحداث واحد دون واحد محال ومع ذلك فانه يمنع عن وقوع الكثرة فيها بالعدد لما بيناه ولأنه لا بد لكل كائن بعد مالم يكن من أن يتقدمه مادة فيكون فيها تهيؤ قبوله أو تهيؤ نسبة اليه كما تبين فى العلوم الأخر ولأنه لو كان يجوز أن تكون نفس جزئية تحدث ولم يحدث لها آلة بها تستكمل وتفعل لكانت معطلة الوجود ولا شىء معطل فى الطبيعة المسخرة المبلغة كل شىء من العنصريات الى كمالها

وغايتها ـ ولكن اذا حدث التهيؤ للنسبة والاستعداد للآلة فيلزم حينئذ أن يحدث من الجود الالهى الفياض بواسطة العلل المفارقة شيء هو النفس وليس اذا وجب حدوث شئ مع حدوث شئ وجب أن يبطل مع بطلانه وانما يكون ذلك اذا كان ذات الشئ قائما بذلك الشئ وفيه*

وقد تحدث أمور عن أمور وتبطل تلك الامور وتبقى هى اذا كانت ذاتها غير قائمة فيها وخصوصا اذا كان مفيد الوجود لها شيئا آخر غير الذى انما هو تهيأ افادة وجوده مع وجوده ومفيد وجود النفس شئ غير الجسم كما بينا والا هو قوة فى جسم بل هو لامحالة أيضا جوهر غير جسم فاذا كان وجوده من ذلك الشئ ومن البدن يحصل وقت استحقاقه الوجود فقط فليس له تعلق فى نفس الوجود بالبدن ولا البدن علة له الا بالعرض فلا يجوز اذاً أن يقال إن التعلق بينهما على نحو يوجب أن يكون الجسم متقدم الذات على النفس *

وأما القسم الثالث مما كنا ذكرنا فى الابتداء وهو أن يكون تعلق النفس بالجسم تعلق المتقدم فى الوجود فاما أن يكون التقدم مع ذلك زمانا فيستحيل أن يتعلق به وجوده وقد تقدمه فى الزمان وإما أن يكون التقدم فى الذات لا فى

الزمان لأنه في الزمان لايفارقه وهذا النحو من التقدم هو أن يكون الذات المتقدمة كلما توجد يلزم أن يستفاد عنها ذات المتأخر فى الوجود وحينئذ لا يوجد أيضا هذا المتقدم فى الوجود اذا فرض المتأخر قدعدم لا لأن فرض عدم المتأخر أوجب عدم المتقدم ولكن لأن المتأخر لايجوز أن يكون عُدم الا وقد عرض أولا بالطبع للمتقدم ماأعدمه فحينئذ عدم المتأخر فليس فرض عدم المتأخر يوجب عدم المتقدم ولكن فرض عدم المتقدم نفسه لأنه انما افتُرِض المتأخر معدوما بعدأن عرض للمتقدم أن عُدِم فى نفسه واذا كان كذلك فيجب أن يكون السبب المعدم يعرض في جوهر النفس فيفسد معه البدن وأن لايكون البدن البتة يفسد بسبب يخصه لكن فساد البدن بسبب يخصه من تغير المزاج أو التركيب فباطل أن تكون النفس تتعلق بالبدن تعلق المتقدم بالذات ثم تفسد بالبدن البتة فليس اذاً بينهما هذا التعلق واذا كان الامر على هذا فقد بطل انحاء التعلق كلها وبقى أن لا تعلق للنفس فى الوجود بالبدن بل تعلقه فى الوجود بالجود الالهى بواسطة المبادى الأخر التى لاتستحيل ولا تبطل *

﴿ برهان انها لا تفنى مطلقا ﴾

فنقول إن النفس لا يتطرق اليها الفناء والعدم والفساد

والهلاك وذلك ان كل شئ من شأنه ان يفسد بسبب مّا ففيه قوّة ان يفسد وقبل الفساد فيه فعل ان يبقى ومحال ان يكون من جهة واحدة وفى شئ واحد قوّة ان يفسد وفعل ان يبقى بل تهيؤه للفساد ليس لفعل ان يبقى فان معنى القوة مغاير لمعنى الفعل واضافة هذه القوة مغايرة لأضافة هذا الفعل لأن اضافة ذلك الى الفساد واضافة هذا الى البقاء فاذاً لأمرين مختلفين فى الشئ يوجد هذان المعنيان * وهذا انما يكون فى الاشياء المركبة أو الاشياء البسيطة فى المركبة ـ وأما فى الاشياء البسيطة المفارقة الذات فلا يجوز فيها هذان الأمران *

ونقول بوجه مطلق أنه لا يجوز ان يجتمع فى شئ احدىّ الذات هذان المعنيان وذلك لأن كل شئ يبقى وله قوّة ان يفسد فله قوة أن يبقى لأن بقاءه ليس بواجب ضروريّ واذا لم يكن واجبا كان ممكنا والامكان طبيعة القوة فاذا يكون له فى جوهره قوة أن يبقى وفعل أن يبقى وفعل ان يبقى منه لا محالة ليس هو قوّة أن يبقى منه وهذا بين فيكون اذاً فعل أن يبقى منه امرا يعرض للشئ الذى له قوّة أن يبقى منه فتلك القوة لا تكون لذات ما بالفعل بل للشئ الذى يعرض له أن يبقى بالفعل لا بوجود ذاته *

فيلزم من هذا أن تكون ذاته مركبة من شئ كان

به ذاته موجودا بالفعل وهو الصورة فى كل شئ ومن شئ حصل له هذا الفعل وفى طباعه قوّة وهو مادته فان كانت النفس بسيطة مطلقة لم تنقسم الى مادة وصورة وان كانت مركبة فلنترك المركب ولننظر فى الجوهر الذى هو مادته ولنصرف القول الى نفس مادته ولنتكلم فيها *

ونقول إن تلك المادة إما أن تنقسم هكذا دائما وتثبت الكلام دائما وهذا محال: وإما أن لا يبطل الشئ الذى هو الجوهر والسنخ وكلامنا فى هذا الشئ الذى هو السنخ والاصل لا فى شئ يجتمع منه ومن شئ آخر فبيّن أن كل شئ هو بسيط غير مركب أو هو اصل مركب وسنخه فهو غير مجتمع فيه فعل أن يبقى وقوة أن يعدم بالقياس الى ذاته فاذا كانت فيه قوة أن يعدم فمحال ان يكون فيه فعل أن يبقى وان كان فيه فعل أن يبقى وأن يوجد فليس فيه قوّة أن يعدم فبين اذاً ان جوهر النفس ليس فيه قوّة أن يفسد *

وأمّا الكائنات التى تفسد فان الفاسد منها هو المركب المجتمع وقوة أن تفسد وأن تبقى ليس فى المعنى الذى به المركبُ واحد بل فى المادة التى هى بالقوة قابلة كلا الضدين فليس اذا فى الفاسد المركب لا قوة أن يبقى ولا قوة أن يفسد فلم يجتمعا فيه *

وأما المادة فامّا ان تكون باقية لا بقوة تستعدّ بها للبقاء كما يظن قوم وإمّا ان تكون باقية بقوّة بها تبقى وليس لها قوة أن تفسد بل قوة أن تفسد شئ آخر فيها يحدث والبسائط التى فى المادة فان قوة فسادها هو فى المادة لا فى جوهرها : والبرهان الذى يوجب ان كل كائن فاسد من جهة تناهى قوّة النفْى والبطلان انما يوجب فيما كونه من مادّة وصورة ويكون فى مادته قوة أن يبقى فيه هذه الصورة وقوّة أن تفسد هى فيهما معا فقد بان اذاً ان النفس لا تفسد البتة والى هذا سقنا كلامنا والله ولى التوفيق *

﴿ بيان اثبات العقل المفارق الفعّال والعقل المنفعل فى النفوس الانسانيّة ومراتب العقول ﴾

واثبات العقل الفعّال من حيث الشرع أظهر من أن يثبت لوروده جليا فى النصوص *

كقوله تعالى (علّمه شديد القوى ذو مرّة فاستوى) وكقوله تعالى (انه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين) وكقوله (وما كان لبشر أن يكلمه الله الاّ وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا)

وأمّا من حيث العقل فمن وجوه الأول ما ذكرناه قبل ذلك من ترتب الموجودات وتفاضلها وانها فى أجسام البسائط

تنتهى الى العرش وفى الروحانيات الى العقل والنفس وفى المركبات الى جوهر محمد صلى عليه وسلّم : وقد بسطنا ذلك الفصل فلا نعيده *

الوجه الثانى قد بان لك ان المرتسم بالصورة العقلّية غير جسم ولا في جسم لأن الجسم ينقسم وما فى الجسم ايضاً والصور العقلية كلية متحدة لا تنقسم فلو حلت جسما لانقسمت وانقسامها محال لحلولها فى الجسم وما فى الجسم محال

وانت تعلم أن المرتسم بالصورة التى قبلها (١) اعنى الوهم والخيال والحسّ قوى مركوزة فى الأجسام وأن الصورة اذا كانت حاصلةً فى القوى لم تغب عنها وان الانسان يدرك صورا عقلية ثم تغيب عنه وان أراد أن يعود اليها يعود على قرب من غير تكلف اكتساب بل يحتاج الى الاقبال عليها * فهذه الصّور العقلية التى غابت إما أن تكون قد انعدمت أو لم تنعدم فان انعدمت فينبغى أن يحتاج الى الاكتساب كما كان أولاً يُحتاج إليه وان لم تنعدم فامّا أن تكون فى النفس أو فى البدن أو خارجا فان كانت فى النفس فينبغى أن تكون شاعرةً بها عاقلة لأنه لا معنى للتعقل إلا حصول تلك الصورة فى النفس ولا يجوز أن تكون فى البدن لما ذكرنا ان المعقولات

---

(١) أى التى قبل الصورة العقلية *

لا تحل الأجسام وما فى الاجسام وان كانت خارجة فاما أن تكون قائمة بنفسها أو تكون فى جوهر آخر شأنه إفاضة المعقولات على الأنفس البشرية ولا يجوز ان تكون قائمة بنفسها لأن المعانى قيامها بالجوهر فلا تقوم بنفسها فبقى أن تكون في الجوهر المفيض للمعقولات فثبت بهذا وجود ملك شأنه ما ذكرناه ـ وذلك هو العقل الفعّال وهو روح القدس *

ثم الدليل على أن التعقل لا يكون غير التمثل فانها لو غابت عنها ثم عاودتها لا يحصل غير التمثيل فلو كان هذا التمثيل ثابتا للنفس كانت شاعرة بها عاقلة لها فيجب أن تكون الصورة قد زالت عن النفس زوالا مّا وهذا بخلاف ما يدركه الوهم ثم يغيب عنها فان للقوّة الوهمية خازنا يحفظ مدركاتها فتى غابت عن الوهم والتفت اليها أخذ منه المعانى التى استفادت من الصّور *

نعم لا ننكر ان الزوال يكون على قسمين فتارة يزول عن القوّة الدرّاكة ويتحفظ فى قوة أخرى كالخازن لها : وتارة يزول عن القوة وعن الخازن ففى الوجه الثانى يحتاج الى تجشم كسب جديد وعلى الأول لا يحتاج الى كسب بل الى التفات ومطالعة للخزانة من غير تجشم كسب ، وفى المعقولات

يحتمل القسمين ولكن قد بينا انه لا خازن لها لا فى النفس ولا فى البدن فبقى ان يكون شيئاخارجا اذا وقع بين نفوسنا وبينه اتصالٌ مّا ارتسم منه فيها الصّور العقلية الخاصة بذلك الاستعداد لأحكام خاصة *

واذا أعرضت النفس عنه الى ما يلى العالم الجسدانى أو الى صورة أخرى انمحى ما تمثل اولا كأن المرآة التى تحاذى بها جانب القدس قد اعرض بها عنه الى جانب الحسّ أو الى شئ آخر من أمور القدس وهذا انما يكون أيضا اذا اكتسبت ملكة الاتصال بالعقل الفعال *

الوجه الثالث ان النفس الانسانية قد تكون عاقلةً بالقوّة ثم تصير عاقلة بالفعل وكل ما خرج من القوة الى الفعل فانما يخرج بسبب هو بالفعل يخرجه فههنا سبب هو الذى يخرج نفوسنا فى المعقولات من القوة الى الفعل واذ هو السبب فى اعطاء الصور العقلية فيكون عقلا بالفعل عنده مبادى الصور العقلية مجردة فهذا الشئ سمى بالقياس الى العقول التى تخرج منه الى الفعل عقلا فعالا كما يسمى العقل الهيولانى بالقياس اليه عقلا منفعلا ويسمى العقل الكائن بينهما عقلا مستفاداً *

ونسبة العقل الفعال الى نفوسنا نسبة الشمس الى ابصارنا

فكما ان الشمس تُبْصَرُ بذاتها بالفعل ويبصَرُ بنورها ما ليس مبصراً بالفعل كذلك حال هذا العقل عند نفوسنا فان القوة العقلية اذا اطلعت على الجزئيات فى الخيال وأشرق عليها نورُ العقل الفعال استحالت مجردةً عن المادة وعلائقها وانطبعت فى النفس الناطقة لا على ان نفسها تنتقل من التخيل الى العقل منا ولا على ان المعنى المغمور فى العلائق وهو فى نفسه واعتباره مجرد يعقل مثل نفسه بل على معنى ان مطالعتها تعدُّ النفس لأن يفيض عليها المجرد من العقل الفعال فان الافكار والتأملات حركات معدة للنفس نحو قبول الفيض كما أن الحدود الوسطى معدة بنحو أشد تاكيدا لقبول النتيجه وان كان الأول على سبيل والثانى على سبيل فتكون النفس الناطقة اذا وقعت لها نسبة مّا الى هذه الصورة بتوسط اشراق العقل الفعّال حدث فيها شئ من جنسها من وجه وليس من جنسها من وجه كما انه اذا وقع الضوء علي الملونات فعل فى البصر منها اثرا ليس على جملتها من كل وجه *

فالخيالات التى هى معقولات بالقوة تصير معقولات بالفعل لا أنفسها بل مايلتقط عنها كما أن الأثر المتأدى بواسطة الضوء من الصور المحسوسة ليس هو نفس تلك الصور بل شيئاً آخر مناسبا لها يتولد بتوسط الضوء فى القابل المقابل

كذلك النفس الناطقة اذا طالعت تلك الصور الخيالية واتصل بها نور العقل الفعال ضربا من الاتصال استعدت لأن يحدث فيها من ضوء العقل مجردات تلك الصور من الشوائب فأول ما يتميز عند العقل الانسانى أمر الذاتى منها والعرضى ومابه يتشابه به وما به يختلف فتصير المعانى معنى واحدا فى ذات العقل بالقياس الى التشابه لكنه بالقياس الى ماتختلف به تصير معانى كثيرة فيكون للعقل قوة على تكثير الواحد من المعانى وعلى توحيد الكثير : أما توحيد الكثير فمن وجهين *

أحدهما أن تصير المعانى الكثيرة المختلفة فى التخيلات بالعدد اذا كانت لاتختلف فى الحد معنى واحدا *

والثانى أن تركب من معانى الأجناس والفصول معنى واحدا بالحد ويكون وجه التكثير بعكس هذين الوجهين فهذا من خواص العقل الانسانى وليس ذلك لغيره من القوى فانها تدرك الكثير كثيراً كما هو : والواحد واحدا كما هو ولا يمكنها أن تدرك الواحد البسيط بل الواحد من حيث هو جملة مركبة من أمور واعراضها ولا يمكنها أن تفصل العرضيات وتنزعها عن الذاتيات فاذا عرض الحس على الخيال صورة وعرض الخيال على العقل تلك الصورة يأخذ العقل

منها معنى فان عرض عليه صورة أخرى من ذلك النوع وانما
هو آخر بالعدد لم يأخذ منـه العقل صورة مّا غير ما أخذه
أولا الا من جهة العرض الذى يخص هذا من حيث ذلك
العرض بأن يأخـذه مرة مجردا ومرة مع ذلك العرض —
ولأجل هذا يقال إن زيداً وعمراً لهما معنى واحد فى الانسانية
اعنى أن السابق منهما اذا أفاد النفس صورة الانسانيـة فان
الثانى لا يفيد البتـة شيئا من ذلك المعنى بل يكون المعنى
المنطبع منهما فى النفس واحدا هو عن الخيال الأول ولا
تأثير للخيال الثانى وللعقل اذا أدرك أشياء فيها تقدم وتأخر
أن يعقـل معها الزمان ضرورة ويكون ذلك لافى زمان بل
فى آن والعقل يعقل الزمان فى آن *

وأما تركيبه للحد والقياس فهو لا محالة يكون فى زمان
الا أن تصور النتيجة والمحـدود يكون دفعة والعقل ليس
قصوره عن تصور الأشياء التى هى فى غاية المعقولية والتجريد
عن المادة لأمر فى ذات تلك الأشياء ولا لأمر فى غريزة
العقل بل لأجل ان العقل مشغول بالبدن ويحتاج فى كثير
من الأمور الى البدن فيبعـده البدن عن أفضل كمالاته فاذا
زال عنـه هذا الغمور كان تعقل النفس للمجردات أفضل
التعقلات وأوضحها وألذها: وأما مراتب العقل من الهيولانى

والملكة والعقل بالفعل والعقل المستفاد فقد ذكرناها : وأما العقل القدسي فسنذكره ان شاء الله تعالى فى خصائص النبوة

﴿ قاعدة فى النبوة والرسالة ﴾

وتشتمل على بيانات : بيان أن الرسالة هل تقتنص بالحد أم لا : وبيان أن الرسالة مكتسبة أم أثرة ربانية : وبيان اثبات الرسالة بالبرهان : وبيان خواص الرسالة وهى المعجزات : وبيان كيفية الدعوة وما يؤخذ من السمع ومالا يؤخذ *

﴿ بيان أن الرسالة لا تقتنص بالحد والحقيقة بذكر « جنسها وفصلها »﴾

وذلك لأن معرفة الأشياء لا تتوقف على الظفر بحدودها ووجدان جنسها وفصلها فكم من موجود لا جنس له ولا فصل ولا حد ولا رسم وماله جنس وفصل فربما لا يظفر بجنسه وفصله وأكثر الأمور كذلك فان اعطاء الحدود صعب عسر على الأذهان *

نعم يستدل على وجوده وحقيقته بآثاره فان العقل والنفس وكثيرا من المفارقات تتصور ولا حد لها ولا رسم وانما يدل عليها برهان انّ : ولو سأل سائل نبيا من الانبياء عن خواص الرسالة وماهيتها وابراز حدّها بجنسها وفصلها ترى كيف كان جوابه عنها أو كان يشرع فى تحقيق ذلك

وذكر حده ورسمه وتعديد خواصه حتى تتوقف رسالته على معرفة ذلك كله وان لم يعرف المستجيب ذلك لا يمكنه تصديقه أم كان يجب عليه التصديق فى الحال سواء عرف حد الرسالة أو لم يعرف : واذا كانت الرسالة مرتبة فوق مرتبة الانسانية كما كانت الانسانية مرتبة فوق مرتبة الحيوانية لم يتوقف أتباع الرسول على معرفة الرسالة كما لم يتوقف استسخار الحيوان علي معرفة الانسانية بل الانسان لو أراد تعريف الحيوان خواص الانسانية كان ذلك سفها منه وتكليف مالا يطاق كذلك لو أراد الرسول تعريف الانسان خواص الرسالة كان ذلك تكليفا منه مالا يطاق فلا المطالبة متوجهة عليه ولا الجواب عنه لازم ـ وهذا كما طالب فرعون موسى عليه السلام بذكر ماهية رب العالمين قال (ومارب العالمين قال رب السماوات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين) وطالبه ثانيا وثالثا فلم يأت بحد ولا رسم ولم يذكر جنسا ولا فصلا فى تعريف ما سأله الا بالربوبية المحضة والتعريف بالحقائق مكانياتها وزمانياتها والمواليد التى بين المكان والزمان *

﴿ بيان أن الرسالة هل هى حظوة مكتسبة أم أثرة ربانية ﴾

فنقول اعلم أن الرسالة أثرة علوية وحظوة ربانية وعطية آلهية لا تكتسب بجهد ولا تنال بكسب (الله أعلم حيث يجعل

رسالته) (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت
تدرى ما الكتاب ولا الايمان) لكن الجهد والكسب فى
فى إعداد النفس لقبول آثار الوحى بالعبادات المشفوعة
بالفكر والمعاملات الخالصة عن الريا والسمعة من لوازمها
فليس الأمر فيها اتفاقياً جزافيا حتى ينالها كل من دبّ ودرج
أو مرتبا على جهد وكسب حتى يصيبها كل من فكر وأدلج وكما
ان الانسانية لنوع الانسان والملكية لنوع الملائكة ليست
مكتسبة لأشخاص النوع وان العمل بموجب النوعية ليس
يخلو عن اكتساب واختيار لاعداد واستعداد كذلك النبوة
لنوع الانبياء ليست مكتسبة لأشخاص النوع وان العمل
بموجب النبوة ليس يخلو عن اكتساب واختيار لاعداد
واستعداد فيوحى اليه (طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى)
حين تورّمت قدماه من العبادة حتى قال عليه السلام « أفلا أكون
عبدا شكورا » وكان صلى الله عليه وسلم يتحنّث بحراء قبل
الوحى وحبب اليه الخلوة وكان يرى الرؤيا فتأتى مثل فلق الصبح
على انها احوال عرضية وأعراض طارئة على النوعية بنوع
استيجاب واستحقاق من كمال تركيب المزاج وحسن الصورة
وتمام الاعتدال وطهارة النشو والتربة وطيب الأعراق ومكارم
الأخلاق والسمت الصالح والأناة والوقار ولين الجانب وخفض

الجناح والرحمة والرأفة بالاولياء والشدة والبأس على الأعداء وصدق الحديث وأداء الأمانة والصون عن جميع الرذائل والتحلى بانواع الفضائل وزكاء العرض عن جميع الدنيات والعفو عمن ظلمه والاحسان الى من أساء اليه وصلة الرحم وحفظ الغيب وحسن الجوار واعانة المظلوم واغاثة الملهوف وحب المعروف وبغض المنكر وغير ذلك (ما ضلّ صاحبكم وما غوى) فى هذا العالم (ما زاغ البصر وما طغى) فى ذلك العالم تعنو لنفسه نفوس العالمين طوعا وكرها وهو غير متكبر ولا جبار ولا فظّ ولا غليظ يهاب اذا سكت ولا يعاب إذا نطق : لطيف الشمائل اذا تحرك وسكن قدنهض باحتمال أعباء ما حمل من الرسالة فأدّاها وأفاض رحمته على العالمين فوفّاها صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين *

﴿ بيان إثبات الرسالة بالبرهان ﴾

بيان اثباتها بطريقين: أحدهما جملى : والآخر تفصيلى * أما الجملى فهو كما أن نوع الانسان تميز عن سائر الحيوانات بنفس ناطقة هى فوقها بالفضيلة العقلية والمسخرة لها والمالكة عليها والمتصرفة فيها كذلك نفوس الانبياء عليهم السلام تميزت عن نفوس الناس بعقل هاد مهدى هو فوق العقول كلها بالفضيلة الربانيــة المدبرة لها والمالكة عليها والمتصرفة فيها

وكما أن حركات الانسان معجزات الحيوان فليس حيوان يتحرك مثل حركته الفكرية والقولية والفعلية كذلك جميع حركات النبي معجزات للانسان فليس انسان يتحرك مثل حركته الفكرية والقولية والفعلية *

وكما تميز النبي عن الناس بعقله المناسب للعقول المفارقة والعقل الأول كذلك تميز بنفسه المشاكلة لنفوس السماوات والنفس الفلكية وكذلك تميز بطبعه ومزاجه المستعد لقبول مثل هذا العقل والنفس بالفعل وكما لا يتصور فى سنة الفطرة الإلهية أن يكون من نطفة كل حيوان انسان كذلك لا يتصور فى سنة الفطرة أن يكون من نطفة كل انسان نبي الله يخلق ما يشاء ويجتبي (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) فهو المختار فى طبعه ومزاجه المصطفى بنفسه وعقله لا يشاركه فيها أحد من الناس *

ومن وجه آخر النبي إذا شارك الناس فى البشرية والانسانية من حيث الصورة فقد باينهم من حيث المعنى اذ بشريته فوق بشرية الناس لاستعداد بشريته لقبول الوحي (قل انما أنا بشر مثلكم) أشار الى طرف المشابهة من حيث الصورة (يوحى الي) أشار الى طرف المباينة

من حيث المعنى (١) أما من حيث التفصيل فمن طرق *

الطريق الأول برهان أنشىء من الحركات الاختيارية وهى أقسام ثلاثة: فكرية،وقولية،وعملية، والحركة الفكرية يدخلها الحق والباطل ،والقولية يدخلها الصدّق والكذب ، والعملية يدخلها الخير والشرّ وهـذه العبارات اصطلاحية والمعنى مستقيم فيها مفهوم عنها ولا يُشك فى انها على تضادّها واختلافها ليست واجبة الفعل بجملتها واجبة التحصيل فانّ من أفتى بهذه الفتوى (١) يكون مستحق القتل بفتواه لأن قتله من جملة الحركات وهو واجب الفعل وليس كلها واجب الترك فان من أفتى بهـذا ينبغى أن لا يتنفس لأن التنفس منه حركة وهى واجبة الترك : فظهر من هـذا ان بعضها واجب الترك وبعضها واجب الفعل : واذا ثبت هذا فقد ثبت حدود فى الحركات حتى كان بعضها خيرا واجب الفعل وبعضها شرّا واجب الترك فالتميز بين حركة وحركة بالحدود: ولا يخلو إما ان يعرفه كل أحد أو لا يعرفه أحد أو يعرفه بعض دون بعض وظاهر انه لايعرفه كل أحد وباطل انه يعرفه كل أحدفظهر أنه يعرفه أحد دون أحد فثبت بالتقسيم

---

(١) أى هذا هو الاثبات اجمالا أما اثبات الرسالة من حيث التفصيل فمن طرق * (٢) اى كل الافعال واجبة التحصيل *

الأول حدود فى الحركات : وثبت بالتقسيم الثانى أصحاب حدود يعرفونها وهم الأنبياء وأصحاب الشرائع عليهم الصلاة والسلام : والانسان اذا راجع نفسَه علم أنه اذا لم يكن عارفا بالحدود يجب أن يكون فى حكم أصحاب الحدود : فثبت وجود النبوة بضرورة الحركات *

الطريق الثانى أن نقول إن نوع الانسان محتاج الى اجتماع على صلاح فى حركاته الاختيارية ومعاملاته المصلحيه ولولا ذلك الاجتماع ما بقى شخصه ولا انحفظ نوعه ولا احترس ماله وحريمه : وكيفية ذلك الاجتماع تسمى ملة وشريعة *

وبيان ذلك أنه فى استبقاء حياته واستحفاظ نوعه وحراسة ماله وحريمه يحتاج الى تعاون وتمانع ـ أما التعاون فلتحصيل ما ليس له مما يحتاج اليه فى مطعمه وملبسه ومسكنه وأما التمانع فلحفظ مالهُ من نفسه وولده وحريمه ومالِه ، وكذلك فى استحفاظ نوعه يحتاج الى تعاون فى الازدواج والمشاركة وتمانع يحفظ ذلك على نفسه ـ وهذا التمانع والتعاون يجب ان يكونا على حد محدود وقضية عادلة وسنة جامعة مانعة : ومن المعلوم أن كل عقل لا يفى بتمهيد هذه السنة على قانون يشمل مصالح النوع جملة ويخص حال كل شخص تفصيلا الا أن يكون عقل مؤيّد بالوحى مفيض للرسالة مستمد من

الروحانيات التى قُيّضت لحفظ نظام العالم وهم بأمره يعملون وعلى سنته فى الخلق سائرون وبحكمه حاكمون فيكون الفيض متصلا بها من المقادير فى الأحكام: ثم منها فائضا على الشخص المتحمل لتلك الأمانة القابل لأسرار الديانة يتبع الحق فى جميع الأمور ويتبعه الخلق فى جميع الحركات يكلم الناس على مقادير عقولهم بعقله الواقف على تلك المقادير ويكلف العبادَ على قدر استطاعتهم بقدرته المحيطة بتلك الأقدار *

وهذه الدلائل فروع لأصل واحد وهو إثبات الأمر لله عزّ وجل وهو الطريق الثالث لأثبات النبوة . ومن لم يعترف بأمره لم يعترف بالنبوة قط فان النبي متوسط الأمر كما أن الملَك متوسط الخلق والأمر وكما وجب الايمان بالله من حيث الخلق والأمر وجب الايمان بالله وبمتوسط الخلق والأمر (كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله)

والطريق فى إثبات الأمر على نوعين : أحدهما أن الممكنات كما احتاجت الى مرجح لجانب الوجود على العدم وأن الحركات كما احتاجت بتجددها الى محرك يديمها بالتعاقب ثم المائلة من الحركات الى غير ما مالت عنه والمختلفات منها الى غير جهاتها الطبيعية احتاجت الى كون المحرك مريداً مختاراً

ثم المتوجهة منها الى نظام الخير دون الفساد والشر احتاجت الى كون المحرك آمراً أمر التدبير وذلك قوله تعالى (وأوحى فى كل سماء أمرها) ثم الحركات الانسانية كما احتاجت الى إرادة عقلية في جهاتها المتباينة كذلك احتاجت الى مكلف آمر ناهٍ في حدودها المختلفة حتى يختار المكلف الحق دون الباطل فى الحركات الفكرية والصدق دون الكذب فى الحركات القولية والخير دن الشر في الحركات العملية وكما أن أمر التدبير جار على عموم الخلق لنظام وجود العالم الكبير كله وذلك قوله تعالى (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) كذلك أمر التكليف جار على خصوص الخلق لنظام وجود العالم الصغير وذلك قوله تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم) وكذلك جميع الأوامر والنواهى المتوجهة علي الناس وكما أوحى فى كل سماء أمرها بواسطة ملك كذلك أوحى فى كل زمان أمره بواسطة نبى فذلك هو التقدير وهذا هو التكليف

الطريق الثانى فى إثبات الأمر الاول أن نقول قد ثبت وتحقق بالبراهين أن الأول المبدع ملك مطاع فله الخلق كله ملكا وملكا ولكل ملك فى سلطانه أمر ونهى وترغيب وترهيب ووعد ووعيد ولا يجوز أن يكون أمره محدثا

مخلوقا فان المخلوق من حيث هو مخلوق لايدل الا على خالق فليس له دلالة على الأمر بمعنى الاقتضاء والطلب والتكليف والتعريف والحث والزجر والترغيب والترهيب: ومن لم يثبت لله عز وجل أمراً يطاع فقد أحال كل هذه الأوامر والنواهى والتذكيرات والتنبيهات على من ادّعى النبوة مقصورة عليه غير متعدية عنه وما يضيفه الى الله تعالى مِن قال الله وذكر الله وأمر الله ونهى الله ووعد الله وأوعد الله يكون مجازاً لاحقيقة وترويجا للكلام على العامة لاتحقيقا (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى الىّ ولم يوح اليه شئ) فقد نسبوا النبي الذى فى أعلى درجات الانسان الى أشد الظلم الذى هو أسفل الدرجات والخيانة التى هى أخبث السيئات جلّ منصبُ النبوة عن ذلك *

﴿ بيان خواص النبوة ولها خواص ثلاث ﴾

احداها تابعة لقوة التخيل والعقل العملى: والثانية تابعة لقوة العقل النظرى :والثالثة تابعة لقوة النفس *

الخاصية الأولى - اعلم أولا أنه ليس يمكن أن يبرهن على مبادى العلوم ومقدماتها من العلوم نفسها فيسلم انا ههنا أن كل معلول معلول فيجب أن يلزم عن علته حتى يوجد وما دام ممكن الوجود عنه بعدُ فليس يوجد وأن الحركة

السماوية اختيارية : وأن الحركة الاختيارية لا تلزم الا عن
اختيار بالغ موجب للفعل وأن الاختيار للأمر الكلى لا يوجب
أمرا جزئيا فانه انما يلزم الأمر الجزئى بعينه عن اختيار جزئى
يخصه بعينه وان الحركات التى توجد بالفعل كلها جزئية فيجب
إن كانت اختيارية أن تكون عن اختيار جزئى فيجب أن يكون
المحرك لها مدركا للجزئيات ولا يكون البتة عقلا صرفا بل
يكون نفسا تستعمل آلة جسمانية تدرك بها أموراً جزئية ادراكا
إما أن يكون تخيلا أو تعقلا عمليا هو أرفع من التخيل وله أيضا
عقل كلى يستمد من العقل المفارق الذى يدرك العلوم الكلية
وهذا كله مبين فى العلوم الالهية : فيظهر من تسليم هذه أن
الحركات السماوية يحرك كل واحد منها جوهر نفسانى يتعقل
الجزئيات بالنحو من التعقل الذى يخصها وترتسم فيه صورها
وصور الحركات التى يختارها كل واحد منها ويجاوزه حتى تكون
هيئات الحركات تتجدد فيها دائما حتى تتجدد الحركات ويكون
يتصور لا محالة حينئذ الغايات التى يؤدى اليها الحركات فى هذا
العالم ويتصور هذا العالم أيضا بتفصيله وتلخيصه والأجزاء
التى فيه لا يعزب عنها شئ : ويلزم ذلك أن يتصور الأمور
التى تحدث فى المستقبل - وذلك أنها أمور يلزم وجودها
عن النسبة التى بين الحركات المتعلقة عنها بالشخصية والنسب

التى بين الأمور التى ههنا والنسب التى بين هذه الأمور وتلك الحركات فلا يخرج شئ البتة من أن يكون حدوثه فى المستقبل لازما لوجود هذه على ماهى عليه فى الحال فان الأمور إما أن تكون بالطبع – وإما أن تكون بالاختيار – وإما أن تكون بالاتفاق والتى تكون عن الطبع انما تكون باللزوم عن الطبع إما طبع حاصل ههنا أوليا – أو طبع حادث ههنا عن طبع ههنا أو طبع حادث ههنا عن طبع سماوى *

وأما الاختيارات فانها تلزم الاختيار والاختيار حادث وكل حادث بعد ما لم يكن فله علة وحدوثه بلزومه وعلته إما شىء كائن ههنا على احدى الجهات أو شئ سماوى أو شئ مشترك بينهما . وأما الاتفاقيات فهى احتكاكات ومصادمات بين هذه الأمور الطبيعيه : والاختيارية بعضها مع بعض فى مجاريها فيكون إذاً الأشياء الممكنة ما لم تجب لم توجد وانما تجب لا بذاتها بل بالقياس الى عللها والى الاجتماعات التى لعلل شتى فاذاً يكون كل شئ متكون متصوراً بجميع الأحوال الموجودة فى الحال من الطبيعة والارادة الأرضية والسماوية ولمأخذ كل واحد منها ومجراه فى الحال فانه يتصور ما يجب عن استمرار هذه على مأخذها من

الكائنات ولا كائنات إلاّ ما يجب عنها كما قلنا : فالكائنات إذاً قد تدرك قبل الكون ولا من جهة ما هى ممكنة بل من جهة ما يجب وانما لا ندرك نحن لأنه إما أن يخفى علينا جميع أسبابها الآخذة نحوها أو يظهر لنا بعضها ويخفى علينا بعضها فبمقدار ما تظهر لنا منها يقع لنا حدس وظنّ بوجودها وبمقدار ما يخفى علينا منها يتداخلنا الشك في وجودها *

وأما المحركات للأجرام السماوية فيحضرها جميع الأحوال المتقدمة معاً فيلزم جميع الأحوال المتأخرة معاً فتكون الهيئة للعالم بما يريد أن يكون فيه يرتسم هناك: ثم تلك الصور لا وحدها بل الصور العقلية التى فى الجواهر المفارقة غير محتجبة عن أنفسنا بحجاب البتة من جهتها انما الحجاب هو فى قبولنا إما لضعفنا أو لاشتغالنا بغير الجهة التى عندها يكون الوصول اليها والاتصال بها؛ وأما اذا لم يكن أحد المعنيين فان الاتصال بها مبذول وليست مما تحتاج أنفسنا في ادراكها إلى شئ غير الاتصال بها ومطالعتها فأما الصور العقلية فان الاتصال بها بالعقل النظرى *

فأما هذه الصوّر التى الكلام فيها فان النفس انّما يتصورها بقوة أخرى وهو العقل العملى ويخدمه فى هذا الباب التخيلُ فتكون الأمور الجزئية تنالها النفس بقوتها

التى تسمى عقلاً عملياً من الجواهر العالية النفسانية وتكون
الأمور الكلية تنالها النفس بقوتها التى تسمى عقلا نظريا
من الجواهر العالية العقلية التى لا يجوز أن يكون فيها شئ
من الصوّر الجزئية البتة وتختلف الاستعدادات للنفوس
جميعا فى الأنفس : خصوصاً الاستعداد لقبول الجزئيات
بالاتصال بهذه الجواهر النفسانية فبعض الأنفس يضعف
فيها ويقلّ هذا الاستعداد لضعف القوة المتخيّلة وبعضها
لا يكون فيه هذا الاستعداد أصلا لضعف القوة المتخيّلة
أيضا وبعضها يكون هذا فيه أقوى حتى ان الحسّ اذا
ترك استعماله القوة المتخيّلة وترك شغله بما يورد عليها جذبتها
القوّة العملية الى تلك الجهة حتى انطبع فيها تلك الصور الاّ
ان القوّة المتخيلة لما فيها من الغريزة المحاكية والمنتقلة من شئ
الى غيره تترك ما أخذَت وتورد شبهه أو ضده أو مناسبه
كما يعرض لليقظان من أنّه يشاهد شيئا فينعطف عليه التخيّل
الى أشياء أخرى يحضرها مما يتصل به بوجه حتى ينسيه
الشئ الأول فيعود على سبيل التحليل والتخمين ويرجع
الى الشئ الأول بأن يأخذ الحاضر مما قد تأدى اليه الخيال
فيفطن أنه خطر فى الخيال تابعاً لأىّ صورة تقدمته وتلك لأى
صورة أخرى وكذلك حتى ينتهى إلى البدء ويتذكر ما نسيه

كذلك التعبير هو تحليل بالعكس لفعل التخيل حتى ينتهى الى الشيء الذى تكون النفس شاهدته حين اتصالها بذلك العالم وأخذت المتخيلة تنتقل عنه الى أشياء أخرى *

فهذه طبقة : وطبقة أخرى يقوّى استعداد نفسها حتى تستثبت ما نالته هناك ويستقر عليه الخيال من غير أن يغلبه الخيال وينتقل الى غيره فتكون الرؤيا التى لا تحتاج الى تعبير

وطبقة أخرى أشد تهيأ من تلك الطبقة وهم القوم الذين بلغ من كمال قوتهم المتخيلة وشدتها انها لا تستغرقها القوى الحسية فى ايراد ما يورد عليها حتى يمنعها ذلك عن خدمة النفس الناطقة فى اتصالها بتلك المبادىء الموحية اليها بالأمور الجزئية فيتصل لذلك فى حال اليقظة ويقبل تلك الصور *

ثم إن المتخيلة تفعل مثل ما تفعل فى حال الرؤيا المحتاجة الى التعبير بأن تأخذ تلك الأحوال وتحاكيها وتستولى على الحسّية حتى يؤثر ما يتخيّل فيها من تلك فى قوة بنطاسيا بأن تنطبع الصور الحاصلة فيها فى البنطاسيا المشاركة فيشاهد صوراً إلهية عجيبة مرئيةً وأقاويل إلهيّة مسموعة هى مثل تلك المدركات الوَحْيِيّة وهذه أدون درجات المعنى المسمى بالنبوّة وأقوى من هذا أن يستثبتَ تلك الأحوال والصّور على

هيئتها مانعة للقوة المتخيلة على الانصراف الى محا كاتها بأشياء أخرى *

وأقوى من هذ أن تكون المتخيلة مستمرة فى محا كاتها والعقل العملى والوهم لا يتخليّان عما استثبتاه فثبت فى الذا كرة صورة ما أخذت وتقبل المتخيّلة على بنطاسيا وتُحا كى فيه ما قبلت بصور عجيبة مسموعة ومبصرة ويؤدى كل واحد منهما على وجهه *

وهذه طبقات النبوة المتعلقة بالقوى العقلية العملية والخيالية : وانظر قصص القرآن كيف أتت على جزئياتها كأنه شاهدها وحضرها وكأنها كانت بمرأى من النبي ومسمع وكيف صدقت بحيث لم ينكرها أحد من منكرى النبوة ولا يتعجبن متعجب من قولنا إن المتخيل قد يرتسم فى بنطاسيا فيشاهد فان المجانين قد يشاهدون ما يتخيلون ولذلك علة تتصل بابانة السبب الذى لأجله يعرض للممرورين أن يخبروا بالأمور الكائنة فيصدقون فى الكثير ـ ولذلك مقدمة وهى أن القوة المتخيلة كالموضوعة بين قوتين مستعملتين لها سافلة وعالية *

أما السافلة فالحس فانها تورد عليها صورا محسوسة تشغلها ـ وأما العالية فالعقل فانه بقوته يصرفها عن التخيل

للكاذبات التى لاتوردها الحواس عليها ولا يستعملها العقل فيها واجتماع هاتين القوتين على استعمالها يحول بينها وبين التمكن من إصدار أفعالها الخاصة على التمام حتى تكون الصورة التى تحضرها بحيث ينطبع فى بنطاسيا انطباعا تاما فيحس" فاذا أعرض عنها إحدى القوتين لم يبعد أن يقام الأخرى فى كثير من الأحوال فلم يمتنع عن فعلها فتمنعها فتارة تتخلص من مجاذبة الحس فتقوى على مقاومة العقل وتمعن فيما هو فعلها الخاص غير ملتفت الى معاندة العقل وهذا فى حال النوم وعند احضارها الصورة كالمشاهدة: وتارة تتخلص عن سياسة العقل عند فساد الآلة التى يستعملها العقل فى تدبير البدن فيستعصى على الحس ولا يمكنها من شغلها بل يمعن إيراد أفاعليها حتى يصير ماينطبع فيها من الصور كالمشاهدة لانطباعه فى الحواس ــ وهذا فى حال الجنون *

وقد يعرض مثل ذلك عند الخوف لما يعرض من ضعف النفس وانخذالها واستيلاء الوهم والظن المعينين للتخيل على العقل فيشاهد أمورا موحشة فالممرورون والمجانين يعرض لهم أن يتخيلوا ماليس موجوداً بهذا السبب *

وأما أخبارهم بالغيب فانما يتفق أكثر ذلك لهم عند أحوال كالصرع والغشى الذى يفسد حركات قواهم الحسية

وقد يعرض أن يكل قوتهم المخيلة لكثرة حركاتهم المضطربة لأنها قوة بدنية وتكون هممهم عن المحسوسات مصروفة فيكثر رفضهم للحس : واذا كان كذلك فقد يتفق أن لا تشتغل هذه القوة بالحواس اشتغالا مستغرقا ويعرض لها أدنى سكون عن حركاتها المضطربة ويسهل أيضا انجذابها مع النفس الناطقة فيعرض للعقل العملى اطلاع الى أفق عالم النفس المذكور فيشاهد ما هنالك ويتأدى مايشاهده الى الخيال فيظهر فيه كالمشاهد المسموع فحينئذ اذا أخبر به المرور وخرج وفق مقاله يكون قد تكهن بالكائنات المستقبلة: والآن فيجب أن نختم هذا البيان فقد أدينا فيه نكت الأسرار المكتومة والله الموفق *

فان قال قائل اذا كان أصحاب الجن والكهنة والعرافون وبعض المجانين ربما يخبرون عن الغيب ويصدق خبرهم وينذرون بالآيات ويتحقق أثرها فبطلت الخاصية النبوية *

فالجواب أن نقول قد بينا قبل ذلك فى البيانات المتقدمة أن التخيل فى الحيوانات على تفاوت وتفاضل وتضاد وترتب حتى قال بعض الحكماء إن أعلى درجاته أن تصل النفس الى النفس التى هى مدبر فلك القمر الذى هو واهب الصور ولولا أن الجزئيات من الموجودات الكائنة الفاسدة متصورة

متخيلة فى ذات النفس الفلكى لما أفاض على كل مادة ماتستحقه من الصور ولا مانع لها من تصور اللوازم الجزئية لحركاتها الجزئيـة من الكائنات عنها فى العالم العنصرى وكأنه بهذا المعنى صار للاجسام السماوية زيادة معنى على العقـل المفارق لتظاهر رأى جزئى وآخر كلى وإن كان الرأى الكلى مستمدا من العقول فاذا فهمت هذا فللنفوس البشرية أن تنتقش من ذلك العالم بحسب الاستعداد وزوال المانع وتكون كالمرآة المقابلة للنفس الفلكى حتى يقع فيها جميع مافى النفس الفلكى فالى هذا الحد عظموا أمر الخيال *

وأما فى جانب السفل فالى حيـوان عديم التخيل أو ضعيف التخيل سريع النسيان لا يمكنه أن يستثبت الصورة ساعة أو لحظة بل يتجدد له الخيالات بحسب تجدد الحركات وهذا على نمط التفاوت بالتفاضل وأما ماهو على نمط التفاوت بالتضاد فكخيال وتخيل كله حق نشأ عن نفس خيرة وكخيال وتخيل كله باطل نشأ عن نفس شريرة وكخيال وتخيل بين الطرفين إن التفتت الى الخير التحق به وإن التفتت الى الشر التحق به وههنا نمط آخر من الكلام وهو إثبات عقل تجرد عن كل خيال وإثبات خيال تجرد عن كل عقل وإثبات عقـل كله خيـال وإثبات خيال كله عقل : وههنا حس عمل من خيـال

وخيال عمل من حس وعقل عمل من خيال وخيال عمل من عقل - وههنا علم على مزاج الظن وظن على مزاج العلم (وانهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً) اشارة الى الظن الأول (وانا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا) إشارة الى الظن الثانى واختصاص الظن بالجن فى القرآن لسر فى خصائص الجن وهو أن وجودهم خيالى وتصوراتهم خيالية وصورهم لا تتراءى الا للخيال: وكما أن الخيال على وسط بين الحس والعقل فكل ماهو خيالى على وسط بين الجسمانى والروحانى كالجن والشياطين والأوساط أبداً تكون ممزوجة من الطرفين أو تكون خالية عن الطرفين *

أما الخاصية الثانية للنبوة وهى تابعة للقوة النظرية فنقول من المعلوم الظاهر أن الأمور المعقولة التى يتوصل الى اكتسابها بحصول الحد الأوسط بعد الجهل انما يتوصل الى اكتسابها فى القياس - وهذا الحد الأوسط قد يحصل على ضربين من الحصول: فتارة يحصل بالحدس والحدس هو فعل الذهن يستنبط بذاته الحد الأوسط : والذكاء قوة الحدس ، وتارة يحصل بالتعلم ويتأدى التعليم الى الحدس فان الابتداء ينتهى لا محالة الى حدوس استنبطها أرباب تلك الحدوس ثم أدوها الى المتعلمين فجائز أن يقع للانسان بنفسه الحدس وأن

ينعقد فى ذهنه القياس بلا معلم بشرى - وهذا يتفاوت بالكم والكيف - أما فى الكم فلأن بعض الناس يكون أكثر حدساً للحدود الوسطى *

وأما بالكيف فلأن بعض الناس يكون أسرعَ زمان حدس ولأن هذا التفاوت ليس منحصرا فى حد بل يقبل الزيادة والنقصان : فمنهم غبى لايعود عليه الفكر برادة : ومنهم له فطانة الى حدٍّ ما ويستمتع بفكره : ومنهم من هو أثقب من ذلك وله اصابة فى المعقولات وتلك الثقابة غير متشابهة فى الجميع بل ربما قلّت وربما كثرت فكما انك تجد جانب النقصان ينتهى الى حدّ يكون منعدم الحدس فأيقن ان جانب الزيادة يمكن أن ينتهى الى حدٍّ يستغنى فى أكثر أحواله عن التعلم والتفكر فيحصل له العلوم دفعة ويحصل معه الوسائط والدلائل فيمكن اذاً أن يكون شخص من الناس مؤيد النفس لشدة الصفاء وكمال الاتصال بالمبادى العقلية الى أن يشتعل حدسا فى كل شىء فيرتسم فيه الصورة التى فى العقل الفعّال إما دفعة وإما قريبا من دفعة إرتساما لاتقليديا بل يقينيا مع الحدود الوسطى والبراهين اللائحة والدلائل الواضحة *

والفرق بين الحدس والفكر ان الفكرة هى حركة

للنفس فى المعانى مستعينا بالتخيل فى أكثر الامور يطلب بها الحد الأوسط وما يجرى مجراه مما يقاربه الى علم بالمجهول حالة الفقد استعراضا للمخزون فى الباطن وما يجرى مجراه فربما تأدت الى المطلوب وربما إنبتّت . وأما الحدس فهو أن يتمثل الحد الأوسط فى الذهن دفعة بان يعلم العلة فيعلم المعلول أو يعلم الدليل فيحصل له العلم بالمدلول دفعة أو قريباً من دفعة وهذا الحصول تارة يكون عقيب طلب وشوق وقد يكون من غير طلب واشتياق بأن يكون نفسا شريفة قوية مستضيئة فى نفسها فيحصل له العلوم ابتداء كأنه ما تخلى الى اختياره يكاد زيتها يضىء ضوء الفطرة ولولم تمسسه نار الفكرة ولا يفارق طريق الالهام والحدس طريق الاكتساب والفكر فى نفس العلم ولا فى محله ولا فى سببه لأن محل العلم النفس * وسبب العلم العقل الفعّال أو الملك المقرب ولكن يفارقه فى جهه زوال الحجاب فان ذلك ليس باختيار العبد ولم يفارق الوحىُ الالهامَ فى شىء من ذلك بل فى مشاهدة الملك المفيد للعلم *

سؤال فان قال قائل اذا كان هذه القوة الحدسية موجودة فى غير النبي فان الانسان يجد فى نفسه هذا التحدس فى مسائل كثيرة ولكل أحد فى صناعته حدوس فان شرط

فى النبي أن يكون فى جميع المعقولات فهو شرط غير موجود فانه ربما يمتنع عليه الحدس فى مسألة أو مسائل وأيضاً فان عقله حينئذ يكون غير مشتبه عليه شيء ممّا من الغيب والشهادة فيكون بعينه عقلا بالفعل فلا يحتاج الى وسط فلا يكون له حدس : وقد أثبتم له الحدس فهذا خلف :وان كان الحدس فى بعض المسائل فقد شاركه فيه غيره وليس بخاصية له *

وأيضا ليس بعض المسائل أولى من بعض وليس له حد محدود يختص بالنبوة فلم تتعين الخاصية النبوية: وأيضا قد رتبتم العقل أربع مراتب الهيولانى ، والملكة ، والعقل بالفعل ، والعقل المستفاد. فى أىّ مرتبة توجد للنبي خاصية يتميز بها عن سائر الناس *

الجواب أن نقول من لم يثبت فى العقول الانسانية تضاداً وترتبا لم يستقم له اثبات هذه الخاصية ـ أما التضادّ فعقل النبي وعقل الكاهن ـ وأما الترتب فكعقل النبي وعقل الصديق والمتضادان خصمان يحتاجان الى حاكم ليس فوقه حاكم والمترتبان ينتهيان بعقل ليس فوقه عقل : وعلى الوجهين جميعا عقل النبي فوق العقول كلها وحاكم عليها ومتصرف فيها ومخرجها من القوة الي الفعل ومكملها بالتكليف الى أقصى غايات الكمال اللائق بكل واحد منها فلا يمكن التنصيص

على حدّ محدود ـ أما اذا كان يمكن أن يقال إن هذه القوة قابلة للزيادة والنقصان فعقل النبي فوق العقول كلها *

أما الخاصية الثالثة التابعة للنفس فنقول قد ظهر لنا فى العلوم الالهيّة أن الصورة التى هى فى الأجسام العالمية تابعة فى الوجود للصور التى فى النفوس والعقول الكلية وأن هذه المادة طوعٌ لقبول ماهو متصور فى عالم العقل فان تلك الصور العقلية مبادى لهذه الصور الحسية يجب عنها لذاتها وجود هذه الأنواع فى العوالم الجسمانية : والأنفس الانسانية قريبة من تلك الجواهر وقد نجد لها فعلا طبيعيا في البدن الذى لكل نفس فان الصورة الارادية التى ترتسم فى النفس يتبعها ضرورة شكل قسرىٌّ للاعضاء وتحريك غير طبيعى وميل غير غريزىّ يذعن لها الطبيعة والصورة الخوفية التى ترتسم فى الخيال يحدث عنها فى البدن مزاج من غير استحالة عن محيل طبيعى شبيه بنفسه : والصورة الغضبية التى ترتسم فى الخيال يحدث عنها فى البدن مزاج آخر من غير محيل شبيه والصورة المعشوقية عند القوة الشهوانية اذا لحت فى الخيال حدث عنها مزاج يُحدِث ريحا من المادة الرطبة فى البدن ويحدّره الى العضو الموضوع آلة للفعل الشهوانى حتى تستعد لذلك الشأن وليست طبيعة البدن الا من عنصر العالم ولولا

أن هذه الطبائع موجودة فى جوهر العنصر لما وجد فى هذا البدن ولا ننكر أن يكون من القوى النفسانية ماهوأقوى فعلا وتأثيراً من أنفسنا نحن حتى لا يقتصر فعلها فى المادة التى رسم لها وهو بدنها بل اذا شاءت أحدثت فى مادة العالم ماتتصوره فى نفسها وليس يكون مبدأ ذلك الاحداث تحريك وتسكين وتبريد وتسخين وتكثيف وتليين كما تفعل فى بدنها فيتبع ذلك أن يحدث سحب هاطلة ورياح وصواعق وزلازل وصياح مثيرة ويتبعه مياه وعيون جارية وما أشبه ذلك فى العالم بارادة هذا الانسان: والذى يقع له هذا الكمال فى جبلة النفس ثم يكون خيّراً متحليا بالسيرة الفاضلة ومحامد الأخلاق وسير الروحانيين مجتنباً عن الرذائل ودنيات الامور فهو ذو معجزة من الانبياء أى من يدعى النبوة ويتحدى بها وتكون هذه الأمور مقرونة بدعوى النبوة أو كرامة من الأولياء ويزيده تزكيته لنفسه وضبطه القوى واسلاسها من هذا المعنى زيادة على مقتضى جبلته: ثم من يكون شريراً ويستعمله فى الشر فهو الساحر الخبيث*

واعلم أن هذه الأشياء ليس القول بها والشهادة لها هى ظنون إمكانية سيرَ اليها من أمور عقلية فقط وان كان ذلك أمراً معتمداً لو كان – ولكنها تجارب لما ثبتت طُلب

اسبابها : ومن حسن الاتفاق لمحبي الاستبصار أن يعرض لهم هذه الأحوال فى أنفسهم أو يشاهدوها مراراً متوالية فى غيرهم حتى يصير ذلك ذوقا فى إثبات أمور عجيبة لها وجود وصحة وداعيا له الى طلب سببها فانه اذا اقترن الذوق بالعلم كان ذلك من أحسن الفوائد وأعظم العوائد والله ولى التوفيق *

﴿ خاتمة لهذا الباب ﴾

فأفضل النوع البشرى مَن أوتى الكمال فى حدس القوة النظرية حتى استغنى عن المعلم البشرى أصلا: وأوتى للقوة المتخيلة استقامة وهمة لا يلتفت الى العالم المحسوس بما فيه حتى يشاهد العالم النفسانى بما فيه من أحوال العالم ويستثبتها فى اليقظة فيصير العالم وما يجرى فيه متمثلا لها ومنتقشا بها ويكون لقوته النفسانية أن تؤثر فى عالم الطبيعة حتى ينتهى الى درجة النفوس السماوية *

ثم الذى له الأمران الأولان وليس له الامر الثالث ثم الذى له هذا التهيؤ الطبيعى فى القوة النظرية دون العملية ثم الذى يكتسب هذا الاستكمال فى القوة النظرية ولا حصة له فى أمر القوة العملية من الحكماء المذكورين : ثم الذى ليس له فى القوة النظرية لا تهيؤ طبيعى ولا اكتساب تكلفى ولكن له التهيؤ فى القوة العملية: فالرئيس المطلق والملك

الحقيق الذى يستحق بذاته أن يملك هو الأول من العدة المذكورين الذى إن نسب نفسه الى عالم العقل وجد كأنه يتصل به دفعة واحدة وإن نسب الى عالم النفس وجد كأنه من سكان ذلك العالم وإن نسب نفسه الى عالم الطبيعة كان فعّالا فيه مايشاء والذى يتلوه أيضا رئيس كبير بعده فى المرتبة والباقون ثم أشراف النوع الانسانى وكرامه *

وأما الذين ليس لهم استكمال شئ من القوى إلا انهم يصلحون الأخلاق ويقتنون الملكات الفضيلة فهم الازكياء من النوع الانسانى ليسوا من ذوى المراتب العالية إلا انهم متميزون من سائر أصناف الانسان *

﴿ بيان السعادة والشقاوة بعد المفارقة ﴾

اعلم أن الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين شرحوا أحوال الآخرة أتمّ شرح وبيان وانما بعثوا لسوق الناس اليها ترغيباً وترهيباً وتشويقاً وتخويفاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل لا سيما ما فى الشريعة الاخيرة من تقرير أحوال المعاد بالروحانى والجسدانى والعاجل والآجل وضرب الأمثال فيها وإقامة البراهين عليها وانما يتعرف حال ما بعد الموت من الانبياء عليهم السلام لأنهم الذين اطلعوا على أحواله وحياً واخباراً والعقل المجرد

كيف يهتدى الى مقادير العلوم والأخلاق حتى يرتب على كل علم وعمل جزاء فى الآخرة مقدراً عليها مناسبا لها: ومن المعلوم أن العلوم مترتبة متفاضلة وانما شرفها بشرف معلوماتها: ومقادير الشرف فيها مترتبة على مقادير شرف المعلومات ومقادير السعادة بها: والجزاء عليها مرتب على مقادير الشرف فيها - وكذلك الأخلاق والأعمال متفاوتة متفاضلة ومتمازة بالخير والشر والمقادير فيها عملا وجزاء مما لا يهتدى اليه عقل كل عاقل إلا أن يكون مؤيداً من عند الله عز وجل بالوحى والانباء مطلعا على ما فى ذلك العالم من أنواع الجزاء فاذاً السعادة البدنية قد شرحها الشرع أتم شرح وبيان فلا يحتاج الى مزيد بسط *

أما السعادة أو الشقاوة التى بحسب الروح والقلب فقد أشار اليها ونبه عليها فى مواضع ونحن نشرح ذلك بقدر ما تهتدى اليه العقول القاصرة فى دار الغربة *

فنقول يجب أن يعلم أن لكل قوة نفسانية لذة وخيراً يخصها وأذى وشراً يخصها: مثاله ان لذة الشهوات أن يتأدى اليها من محسوساتها كيفية ملائمة من الحس وكذلك لذة الغضب الظفر ولذة الوهم الرجاء ولذة الحفظ تذكر الامور الماضية الموافقة وأذى كل واحد منها ما يضاده ويشترك كلها

نوعا من الشركة فى أن الشعور بموافقها وملائمها هو الخير واللذة الحاصلة بها وموافق كل واحد منها بالذات والحقيقة هو حصول الكمال الذى هو بالقياس اليه كمال بالفعل- فهذا أصل :وأيضا فان هذه القوى وان اشتركت فى هذه المعانى فان مراتبها فى الحقيقة مختلفة فالذى كماله أفضل وأتم وأدوم وأوصل اليه وأحصل له والذى هو فى نفسه أشد إدراكا كانت اللذة التى له أبلغ وأوفر وهذا اصل:وقد يكون الخروج الى الفعل فى كمال بحيث يعلم انه كائن لذيذ ولا يشعر باللذة مالم يحصل له ومالم يشعر به لم يشتق اليه ولم ينزع نحوه مثل العنين فانه متحقق أن الجماع لذيذ ولكن لايشتهيه ولا يحن اليه الاشتهاء والحنين اللذين يكونان مخصوصين به بل شهوة أخرى كما يشتهى من يجرب شهوة من حيث يحصل بها إدراك وإن كان مؤذيا وكذلك حال الأكمه عند الصور الجمالية والأصم عند الالحان المنتظمة الرخيمة ولهذا يجب أن لايتوهم العاقل ان كل لذة فهو كما للحمار فى بطنه وفرجه وان المبادى الأول المقربة عند رب العالمين عادمة للذة والغبطة *

وإن رب العالمين ليس فى سلطانه وخاصيته البهاء الذى له وقوته الغير المتناهية أمر فى غاية الفضيلة والشرف والطيب نجله عن أن نسميه لذة فأى نسبة يكون لذلك مع هذه

الحسية ونحن نعرف ذلك يقيناولكن لا نشعر به لفقداننا تلك الحالة فيكون حالنا حال الأصم والأكمه وهذا أصل وأيضا فان الكمال والأمر الملائم قد يتيسر للقوة الدراكة وهناك مانع أو شاغل للنفس فيكرهه ويؤثر ضده عليه مثل كراهية المريض للعسل وشهوته للطعوم الردية الكريهة بالذات وربما لم يكن كراهية ولكن عدم الاستلذاذ به كالخائف يجد اللذة ولا يشعر بها وهذا أصل : وأيضا قد تكون القوة الدراكة ممنوة بضد ما هو كمالها ولا يحس به ولا ينفر عنه حتى اذا زال العائق رجع الي غريزته فتأذت به مثل الممرور فربما لا يحس بمرارة فمه الى ان يصلح مزاجه وينقى اعضاءه فحينئذ ينفر عن الحال العارضة له — وكذلك قد يكون الحيوان غير مشته للغذاء البتة وهو أوفق شيء له وكارها له ويبقى عليه مدة طويلة فاذا زال العائق عاد الى واجبه فى طبعه فاشتد جوعه وشهوته للغذاء حتى لا يصبر عنه ويهلك عند فقدانه وكذلك قد يحصل سبب الألم العظيم مثل حرق النار وتبريد الزمهرير إلا أن الحس قد أصابته آفة فلا يتأذى البدن به حتى تزول الآفة فيحس به حينئذ *

فاذا تقررت هذه الأصول فنقول : إن النفس الناطقة كمالها الخاص بها أن يصير عالما عقليا مرتسما فيه صورة الكل

والنظام المعقول فى الكل والخير الفائض فى الكل مبتدأ من مبدأ الكل وسالكا الى الجواهر الشريفة الروحانية المطلقة ثم الروحانيات المتعلقة نوعا مّا من التعلق بالأبدان ثم الاجسام العلوية بهيئاتها وقواها: ثم كذلك حتى تستوفى في نفسها هيئة الوجود كله فينقلب عالما معقولا موازيا للعالم الموجود كله مشاهدا لما هو الحسن المطلق والخير المطلق والجمال المطلق ومتحدا به ومنتقشا بمثاله وهيئته ومنخرطا فى سلكه وصايرا من جوهره *

فاذاقيس هذا بالكمالات المشوقة التى للقوى الأخرى توجد فى المرتبة التى بحيث يقبح معها أن يقال إنه أفضل وأتم منها بل لا نسبة لها البتة بوجه من الوجوه فضيلة وتماما وكثرة ودواما: وكيف يقاس الدوام الأبدى بدوام المتغير الفاسد وكذلك شدة الوصول فكيف يكون ما وصوله بملاقاة السطوح والأجسام بالقياس الى ماوصوله بالسريان فى جوهر الشئ كأنه هو بلا انفصال اذا العقل والمعقول واحد أوقريب من الواحد وأما أن المدرك فى نفسه أكمل فهو أمر لا يخفى وأما انه أشد إدراكا فأمر أيضا يكشف عنه أدنى بحث فانه أكثر عدداً للمدركات وأشد تقصيا للمدرك وتجريداً له عن الزوائد الغير الداخلة فى معناه الا بالعرض والخوض في باطنه

وظاهره بل كيف يعاير هذا الادراك بذلك الادراك أو كيف يمكننا أن ننسب اللذة الحسية والبهيمية والغضبية الى هذه السعادات واللذات ـ ولكنا فى عالمنا هذا وأبداننا هذه وانغمارنا فى الرذائل لا نحس بتلك اللذة اذا حصل شئ من اسبابها عندنا كما أومأنا اليه فى بعض ماقدمنا من الاصول ـ ولذلك لانطلبها ولا نحن اليها. اللهم الا أن نكون قد خلعنا ربقة الشهوة والغضب واخواتهما عن أعناقنا وطالعنا شيئاً من تلك اللذة فحينئذ ربما نتخيل منها خيالا طفيفا ضعيفا وخصوصا عند انحلال المشكلات واستيضاح المطلوبات اليقينية : والتذاذنا بذلك شبيه بالتذاذ الحس عن المذاقات اللذيذة بروائحها من بعيد *

وأما اذا انفصلنا عن البدن وكانت النفس تنبهت وهى فى البدن لكمالها الذى هو معشوقها ولم تحصله وهى بالطبع نازعة اليه اذا عقلت بالفعل انه موجود إلا ان اشتغالها بالبدن كما قلنا أنساه ذاته ومعشوقه كما ينسى المرض الحاجة الى بدل ما يتحلل وكما ينسى الممرور الالتذاذ بالحلو واشتهاءه وتميل بالشهوة منه الى المكروهات فى الحقيقة عرض لها حينئذ من الالم لفقد انه كفاء مايعرض من اللذة التى أوجبنا وجودها ودللنا على عظم منزلتها فيكون ذلك هو الشقاوة والعقوبة التى

لا يَعد لُها تفريق النار للاتصال وتبديلها أو تبديل الزمهرير المزاج فيكون مثلنا حينئذ مثل الخدر الذى أومأنا اليه فيما سلف والذى قد عمل فيه نارا وزمهريرا فمنعت المادة الملابسة وجوه الحس عن الشعور فلم يتأذ ثم عرض أن زال العائق فشعر بالبلاء العظيم *

وأما اذا كانت القوة العقلية بلغت من النفس حداً من الكمال فيمكنها به اذا فارقت البدن أن تستكمل الكمال الذى لها ان تبلغه كان مَثلُه مثل الخدر الذى اذيق المطعم الألذّ وعرض للحالة الأشهى وكان لا يشعر فزال عنه الخدر فطالع اللذة العظيمة دفعة وتكون تلك اللذة لا من جنس تلك اللذة الحسية والحيوانية بوجه بل لذة تشاكل الحالة الطيبة التى للجواهر الحية المحضة أجلّ من كل لذة وأشرف — فهذه السعادة وتلك الشقاوة ليست تكون لكل واحد من الناقصين بل للذين اكتسبوا اللذة العقلية الشوق الى كمالها وذلك عند ما يتبرهن لهم أن من شأن النفس ادراك ماهية الكل بكسب المجهول من المعلوم والاستكمال بالفعل فان ذلك ليس فيها بالطبع الأول أيضا فى سائر القوى بل شعور أكثر القوى بكمالاتها انما يحدث بعد اسباب *

وأما النفوس والقوى الساذجة الصرفة فكأنها هيولى

موضوعة لم تكتسب البتة هذا الشوق لأن هذا الشوق
انما يحدث حدوثا وينطبع فى جوهر النفس اذا تبرهن للقوة
النفسانية ان ههنا أموراً يكسبها العلم بالحدود الوسطى وبمباد
معلومة بأنفسها. وأما قبل ذلك فلا يكون لأن هذا الشوق
يتبع رأيا وليس رأيا أوليا بل رأيا مكتسبا - فهؤلاء اذا
اكتسبوا هذا الرأى لزم النفس ضرورة هذا الشوق واذا
فارق ولم يحصل معه ما يبلغ به بعد الانفصال التام وقع فى
هذا النوع من الشقاء الأبدى لأنه انما كانت تلك السعادة
تكتسب بالبدن لاغير وقد فارق وهؤلاء إما مقصرون عن
السعى فى كسب الكمال الانسى أو معاندون جاحدون
متعصبون لآراءٍ فاسدة متضادة للآراء الحقيقية وحال
الجاحدين أشد من حال المقصرين: وحال المقصرين أشد من حال
النفوس الساذجة الصرفة — وأما انه كم ينبغى أن يحصل
عند نفس الانسان من تصور المعقولات حتى يجاوز به الحد
الذى فى مثله تقع هذه الشقاوة فليس يمكننى ان أنصّ عليه
نصاً الا بالتقريب وأظن أن ذلك أن يتصور نفس الانسان
المبادى المفارقة تصوراً حقيقيا ويصدّق بها تصديقا يقينيا
لوجودها عنده بالبرهان ويعرف العلل الغائية للأمور الواقعة
فى الحركات الكلية دون الجزئية التى لا تتناهى ويتقرّر

عنده هيئة الكل ونسب أجزائه بعضها الى بعض والنظام الآخذ من المبدأ الأول الى أقصى الموجودات الواقعة فى ترتيبه ويتصور العناية الشاملة للكل وكيفيتها ويتحق ان الذات الحق الموجد للكل أىّ وجود يخصها وأى وحدة تخصها وأنها كيف تعرف حتى لا يلحقها تكثّر وتغير بوجه من الوجوه : وكيف ترتبت نسبة الوجود اليه جل وعلا: ثم كلما ازداد الناظر استبصاراً ازداد للسعادة استعدادا وكأنه ليس يتبرأ الانسان عن هذا العالم وعلائقه إلا أن يكون أكد العلاقة مع ذلك العالم فصار له شوق الى ما هناك وعشق لما هناك يصده عن الالتفات الى ماخلفه جملة *

ونقول أيضا إن هذه السعادة الحقيقية لا تتم الا باصلاح الجزء العملى من النفس فاليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه: ونقدم لذلك مقدمة — فنقول إن الخُلُقَ هو ملكة يصدر بها عن النفس أفعال مّا بسهولة من غير تقدم روية، والخلق المحمود هو الوسط بين الطرفين المذمومين فكلا طرفى قصد الامور ذميم: وقد شرحنا ذلك أتم شرح فيما سبق: وجملته أن لا تحكم العلاقة مع القوى البدنية قصدا بل يكون للعقل العملى يد الاستيلاء :وللقوة الحيوانية الأنقياد والمطاوعة *

فالعقل ينبغى أن لا يتأثر عن القوى الحيوانية بل يؤثر والقوى الحيوانية ينبغى أن تتأثر ولا تؤثر فاذا كان كذلك فتكون النفس على جبلتها مع افادة هيئة الاستعلاء والتنزه وذلك غير مضادّ لجوهره ولا مائل به الى جهة البدن : ثم النفس انما كان البدن يغمره ويلهيه ويغفله عن الشوق الذى يخصه وعن طلب الكمال الذى له وعن الشعور بلذة الكمال ان حصل له أو الشعور بألم فقد الكمال ان قصّر عنه لا بأن النفس منطبعة فيه أو منغمسة فيه لكن للعلاقة التى بينهما وهو الشوق الجبلى الى تدبيره والاشتغال بآثاره وما يورده عليه من عوارضه . فاذا فارق وفيه ملكة الاتصال به وكان قريب الشبه من حاله وهو فيه فبقدر ماينقص من ذلك يزول عنه غفلته عن حركة الشوق الذى له الى كماله وبقدر ما يبقى منه يصده عن الاتصال الصرف بمحل سعادته ويحدث هناك من الحركات المشوشة مايعظم أذاه *

ثم تلك الهيئة البدنية مضادة لجوهره مؤذية له وانما كان يلهيه عنه البدن وتمام انغماسه فيه فاذا فارقته أحست بتلك المضادة العظيمة فان الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا وتأذّت أذى عظيماً لكن هذا الأذى وهذا الألم ليس لأمر ذاتى بل لأمر عارض غريب والأمر العارض الغريب لايدوم ولا يبقى

ويزول ويبطل مع ترك الافعال التى كانت تثبت تلك الهيئة بتكريرها فيلزم اذاً أن تكون العقوبة التى بحسب ذلك غير خالدة بل تزول وتنمحى قليلا قليلا حتى تزكو النفس وتبلغ السعادة التى تخصها — ولهذا لم يرَ أهل السنة تخليدَ أهل الكبائر من المؤمنين لأن أصل الاعتقاد راسخ والعوارض تزول ويعفى عنها وتغفر *

وأما النفوس البله التى لم تكتسب الشوق ولم تحن الى المعارف التى للعارفين فانها اذا فارقت الأبدان وكانت غير مكتسبه للهيئات الردية صارت الى سعة رحمة الله تعالى ونوع من الراحة — ولهذا قال عليه السلام «أكثر أهل الجنة البله وعليّون لذوى الألباب» — وأما ان كانت مكتسبة للهيئات البدنيـة ملطخة بالمعاصى وكدورات الشهوات وليس عندها هيئة غير ذلك ولا معنى يضاده وينافيه فيكون لامحالة شوقها الى مقتضاها فتتعذب عذابا شديدا لفقدان البدن ومقتضيات البدن من غير أن يحصل المشتاق اليه لأن آلة الذكر والفكر قد بطلت وخلق التعلق بالبدن قد بقى وان اعتقدت اعتقادات باطلة وآراء فاسدة ومع ذلك تعصّب لتلك الاعتقادات وجحد الحق فذلك هو حليف ألم ورفيق عذاب اليم مقيم *

فخلاصة هذا الفصل أن النفس بعد المفارقة إن كانت

قد فارقت قبل أن اكتسبت حقا أو باطلا فهو من أهل
النجاة لامستريح منعّمٌ ولا معذّبٌ كحال الصبيان والمجانين
وإن كانت معتقدة اعتقادات وهمية فاسدة مضادّة للحق
وأضاف اليها أعمالا على خلاف الشرع فهو فى عذاب مقيم
وإن اعتقدت اعتقادا حقا لاعن براهين يقينية وأضاف اليها
أعمالا صالحة فهو من أهل الجنة : وان اعتقدت اعتقادات حقة
ولكن اشتغلت بزخارف الدنيا ولذاتها وشهواتها فهو معذب
ملتفت الى ما خلّفه غير واصل اليه لأنّ آلة طلب الدنيا قد
بطلت إلا أن هذا العذاب لا يبقى بل يزول إذا أتى عليه مدّة
من الزمان : وان كانت من العلوم فى درجة الكمال واعتقدت
الحقائق على براهينَ يقينيّةٍ ولكن تنهج مناهج الشرع ولم
تسلك سبيل الخيرات ولم يعمل بعلمها فهو معذب مدّة
ولكن يزول ولا يبقى ويبلغ بالآخرة درجةً من السعادة بسبب
العلم لأن هذه العوارض بمقتضى الشهوات وتلك تزول *
وان حصل له العلوم اليقينية إمّا على سبيل الحدس وإمّا على
سبيل الفكر ونزّه أخلاقه وحسّنها وعمل بموجب الشرع فله
الدرجة العليا فى السعادة وله الوصول بلا انفصال وهو النظر
الى الجمال الحق والجلال المحض والكمال الصّرف كما قال الله
تعالى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) فحق العاقل أن

يسعى لطلب تلك السعادة ويحترز عن مضادها وعوائقها والله ولى التيسير والتوفيق *

﴿ فصل ﴾

والنفس الانسانية اذا تجردت عن البدن ولم يبق لها علاقة الا بعالمها فانه يجوز أن يكون فيها ما يكون بالعقل والرأى وسائر ما يعقل مما يليق بذلك العالم الذى هو عالم الثبات والسكون بالفعل وهو عالم اتصال النفس بالمبادئ التى فيها هيئة الوجود كلها فتنتقش به فلا يكون هناك نقصان وانقطاع من الفيض المتمم حتى تحتاج أن تفعل فعلا ينال به كمالا ويقول قولا ينال به كمالا وذلك هو الفكر والذكر ونحوها فانها تنتقش بنقش الوجود كله فلا يحتاج الى طلب نقش آخر فلا يتصرف فى شىء مما كان فى هذا العالم، وفى تحصيلها على هيئاتها الجزئية طالبة لها من حيث كانت جزئية : والنفس الزكية تعرض عن هذا العالم وهى متصلة بعد بالبدن ولا تحفظ ما يجرى فيه عليها ولا تحب أن تذكر فكيف الفائز بالتجرد المحض مع الاتصال بالحق والجمال المحض والعالم الأعلى الذى فى حيز السرمد وهو عالم ثبات ليس عالم التجدد الذى فى مثله يتأتى أن يقع الفكر والذكر: وانما عالم التجدد عالم الحركة والزمان فالمعانى العقلية

الصرفة والمعانى التى تصير جزئية مادية كلها هناك بالفعل وكذلك حال نفوسنا *

والحجة فى ذلك أنه لا يجوز أن تقول إن صور المعقولات حصلت فى الجواهر التى في ذلك العالم على سبيل الانتقال من معقول الى معقول فلا يكون هناك انتقال من حال الى حال حتى انه لا يقع أيضاً للمعنى الكلى تقدّم زمانىّ على المعنى الجزئىّ كما يقع ههنا فانك تحصّل الكلى أولا ثم تأتى الحالة الزمانية فتفصّل بل العلم بالمجمل من حيث هو مجمل وبالمفصّل من حيث هو مفصّل معا لا يفصل بينهما الزمان فاذا كان هذا هكذا فى الجوهر الذى هو الخاتم فكذلك هو فى الجوهر الذى هو كالشمع فان نسبة الجوهر الذى هو كالشمع حين ترتفع العوائق الى الذى هو كالخاتم نسبة واحدة فلا يتقدم فيها انتقاش ولا يتأخر بل الكل معا. وهذا فصل فى غاية التحقيق *

﴿ بيان حقيقة اللقاء والرؤية ﴾

اعلم أن المدركات تنقسم الى مايدخل فى الخيال كالصوّر المتخيلة والأجسام المتلونة والمتشكلة من أشخاص الحيوان والنبات والى مالا يدخل كذات الله سبحانه وكل ما ليس بجسم كالعلم والقدرة والارادة وغيرها : ومن رأى إنسانا ثم غمّض بصره وجد صورته حاضرة فى خياله كأنه ينظر اليها

ولكن اذا فتح العين وأبصر أدرك تفرقة بينهما ولا يرجع التفرقة الى اختلاف بين الصورتين لأن الصورة المرئية تكون موافقة للمتخيّلة وإنما الافتراق بمزيد الوضوح والكشف فان صورة المرئى صارت بالرؤية أتم انكشافا ووضوحا وهو كشخص يرى فى وقت الإسفار قبل انتشار ضوء النهار : ثم يرى عند تمام الضوء فانه لا تفارق إحدى الحالتين الأخرى الا فى مزيد الانكشاف فاذاً الخيال أول الادراك والرؤية هو استكمال ادراك الخيال وهو غاية الكشف وسُمّى ذلك رؤية لأنه غاية الكشف لا لأنه فى العين بل لو خلق الله تعالى هذا الادراك الكامل المكشوف فى الجبهة أو الصدر مثلا استحق أن يسمى رؤية *

واذا فهمت هذا فى المتخيلات فاعلم أن المعلومات التى لا تتشكل فى الخيال أيضا لمعرفتها وإدراكها درجتان : احداهما أولى : والثانية استكمال لها : وبين الثانية والأولى من التفاوت فى مزيد الكشف والايضاح ما بين المتخيل والمرئى فتسمى الثانية أيضا بالاضافة الى الأولى مشاهدة ولقاء ورؤية ـ وهذه التسمية حق لأن الرؤية سميت رؤية لانها غاية الكشف وكما أن سنة الله جارية بأن تطبيق الأجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية ويكون حجابا بين البصر والمرئى ولا بد

من ارتفاع الحجاب لحصول الرؤية ومالم يرتفع كان الادراك الحاصل مجرّد التخيل فكذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات وماغلب عليها من الصفات البشرية فانها لا تنتهى الى المشاهدة واللقاء فى المعلومات الخارجية عن الخيال بل هذه الحياة حجاب لها مانع عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار *

ولذلك قال الله تعالى لموسى عليه السلام (لن ترانى) وقال تعالى (لا تدركه الأبصار) أى فى الدنيا فاذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوّثة بكدورات الدنيا غير منفكة عنها بالكلية وان كانت متفاوتة فى ذلك التلوّث : فنها ما تراكم عليها الخبثُ والصدأ فصارت كالمرآة التى قد فسد بطول تراكم الخبث جوهرُها ولا تقبل الاصلاح والتصقيل وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد نعوذ بالله منه *

ومنها مالم ينته الى حد الرين والطبع ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل فيعرض على النار عرضا يقلع منه الخبث الذى هو متدنس به ويكون عرضه على النار بقدر الحاجة الى التزكية وأقلها لحظة خفيفة وأقصاها فى حق المؤمنين كما ورد فى الخبر سبعة آلاف سنة ولن يرتحل نفس من هذا العالم الاّ ويصحبها غبرة وكدورة مّا وإن قلّت *

ولذلك قال تعالى (وإن منكم الاَّ واردها كان على ربك حتماً مقضياً) أللهم إلا نفوسا قد انغمست فى تأمل الجبروت وانخرطوا فى سلك القدس مستديمين لشروق نور الحق فى أسرارهم على الدوام: فهؤلاء مبدؤهم ومعادهم سواء فان من النفوس الانسانية وعقولها ما هو نفس مفطورة على التجرد والتقدس عن علائق المواد وغواشى هذا العالم من القوة والاستعداد منخرطا فى سلك العقول المفارقة متصلا بالعقل الأول مستمدا من الكلمة العليا مؤيداً من أمر الله تعالى أرسل الى عالم الأجساد لا ليستكمل عنها وعن قواها الجسمانية استكمال العقول الهيولانية لتخرج من القوة الى الفعل بل لتخرج العقول بالقوة من القوة الى الفعل ويكمّل النفوس الناطقة المنغمسة فى أحوال هذا العالم الى غايات قدّرت لها من الكمال: فهؤلاء فُطر مبدؤهم على طبيعة معادهم فهم الملأ الأعلى وهم المبادئ الأولى يحق لهم أن يقولوا كنا أظلة عن يمين العرش فسبّحنا فسبّحت الملائكة بتسبيحنا وحقا قال لهم (قل إن كان للرحمان ولد فانا أول العابدين) وصدقا - قال عليه السلام «كنت نبيا وآدم لمنجدل بين الماء والطين» ومن رأى التضاد والترتب فى الموجودات والمفروغ والمستأنف فى الأحكام لم يبق عليه إشكال - أما أكثر النفوس فمستيقنة

للورود بقدر التلطخ بالاوزار منها فاذا أكمل الله تعالى تطهيرها
وتزكيتها وبلغ الكتاب أجله ووقع الفراغ عن جملة ماوعد به
الشرع من العرض والحساب وغيره ووافى استحقاق الجنة
وذلك وقت مبهم لم يُطلع الله عليه أحداً من خلقه فانه واقع
بعد القيامة ووقت القيامة مجهول : فعند ذلك يستعد بصفائه
ونقائه من الكدورات حيث لايرهق وجهه غبرة ولاقترة
لأن يتجلى فيه الحق جل جلاله فيتجلى له تجليا يكون انكشاف
تجليه بالاضافة الى ما عليه كانكشاف تجلى المرئيات بالاضافة
الى ماتخيله — وهذه المشاهدة والتجلى هى التى تسمى رؤية
فاذاً الرؤية حق بشرط أن لاتفهم من الرؤية استكمال الخيال
فى متخيل متصوَّر مخصوص بجهة ومكان فان ذلك مما يتعالى
عنه ربُّ العالمين علوا كبيراً بل كما عرفته فى الدنيا معرفة
حقيقية تامة من غير تصور وتخيل وتقدير شكل وصورة
فتراه فى الآخرة كذلك بل أقول المعرفة الحاصلة فى الدنيا
بعينها هى التى تستكمل فتبلغ كمال الانكشاف والوضوح
وتنقلب مشاهدة فلا يكون بين المشاهدة فى الآخرة والمعلوم
فى الدنيا اختلاف الا من حيث زيادة الكشف والوضوح
فاذا لم يكن فى المعرفة إثبات صورة وجهة فلا يكون
فى استكمال المعرفة بعينها وترقيها فى الوضوح الى غاية الكشف

أيضا جهة وصورة لأنها هى بعينها الا في زيادة الكشف
كما أن الصورة المرئية هى المتخيلة بعينها إلا فى زيادة الكشف
ولهذا لا يفوز بدرجة النظر والرؤية الا العارفون فى الدنيا
لأن المعرفة هى البذر الذى ينقلب فى الآخرة مشاهدة كما
تنقلب النواة شجرة والبذور زرعا : ومن لا نواة له فكيف
يحصل له نخل فكذلك من لا يعرف الله فى الدنيا فكيف
يراه فى الآخرة : ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان
التجلى أيضا على درجات متفاوتة فاختلاف التجلى بالاضافة
إلى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالاضافة الي اختلاف
البذور اذ تختلف لا محالة بكثرتها وقلتها وحسنها وقوتها
وضعفها - ولذلك قال عليه السلام «ان الله تجلّى للناس عامة ولا بى
بكر خاصة لانه فضَل الناسَ بسرٍّ وقرَ فى صدره» فلاجرم
تفرّد بالتجلى وكل من لم يعرف الله فى الدنيا لا يراه فى الآخرة
اذ ليس يستأنف لأحد فى الآخرة ما لم يصحبه من الدنيا
ولا يحصد أحد الا ما زرع ولا يُحشرُ المرء الاّ على مامات
عليه ولا يموت الاّ على ما عاش عليه فما صحبه من المعرفة
هى التى يتنعم بها بعينها فقط الا أنها تنقلب مشاهدة بكشف
الغطاء عنها فتتضاعف اللذة كما تتضاعف لذة العاشق اذا استبدل
بخيال صورة المعشوق رؤية صورته فان ذلك هو منتهى لذته .

فاذاً نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى وحب الله تعالى بقدر المعرفة : فأصل السعادات هى المعرفة التى عبَّر الشرعُ عنها بالايمان *

فان قلت فلذة الرؤية إن كان لها نسبة الى لذة المعرفة فهى قليلة وإن كانت أضعافها لأن لذة المعرفة فى الدنيا قليلة ضعيفة فتضاعفها الى حد قريب لا ينتهى فى القوة الى أن يُستحقر سائر لذات الجنة فيها *

فاعلم أن هذا الاحتقار للذة المعرفة مصدره الخلوّ عن المعرفة : فمن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذتها وان انطوى على معرفة ضعيفة وقلب مشحون بعلائق الدنيا فكيف لذتها فللعارفين فى معرفتهم وفكرتهم ولطائف مناجاتهم لله تعالى لذات لو عرضت عليهم الجنة فى الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوا بها الجنة *

ثم هذه اللذة مع كمالها لا نسبة لها أصلا الى لذة اللقاء والمشاهدة كما لا نسبة للذة خيال المعشوق الى رؤيته: واظهار عظم التفاوت بينهما لا يمكن الا بضرب مثال *

فنقول لذة النظر الى وجه المعشوق فى الدنيا تتفاوت بأسباب * أحدها كمال جمال المعشوق ونقصانه * والثانى كمال قوة الحبّ * والثالث كمال الادراك * والرابع اندفاع العوائق المشوشة والآلام الشاغلة للقلب فقدّر عاشقاً ضعيف العشق

ينظر الى وجه معشوقة من وراء ستر رقيق على بعد بحيث
يمنع انكشاف كنه صورته فى حالة اجتمع عليه عقارب
وزنابير تؤذيه وتلدغه وتشغل قلبه فهو فى هذه الحالة لا يخلو
عن لذّة مّا من مشاهدة جمال معشوقه فلو طرأت على الفجأة
حالة انهتك بها الستر وأشرق به الضوء واندفع عنه المؤذيات
وبقى سليما فارغا وهجم عليه الشهوة القوية المفرطة والعشق
المفرط حتى بلغ أقصى الغايات: فانظر كيف تتضاعف اللذة حتى
لا يبقى للأولى اليه نسبة يُعتد بها فكذلك فافهم نسبة لذة
النظر الى لذة المعرفة: فالستر الرقيق مثال للبدن والاشتغال
به: والعقارب والزنابير مثال للشهوات المتسلطه على الانسان
من الجوع والعطش: والغضب والغم والحزن وضعف الشهوة
والحب مثال لقصور النفس فى الدنيا وتقصانها عن الشوق
الى الملأ الأعلى والتفاته الى أسفل السافلين: وهو مثل قصور
الصبىّ عن ملاحظة لذة الرئاسة والعكوف على اللعب
بالعصفور: فالعارف وإن قويت فى الدنيا معرفته فلا يخلو عن
هذه الشهوات ولا يتصور أن يخلو عنها البتة، نعم قد تضعف
هذه العوائق فى بعض الأحوال ولا يدوم فلا جرم يلوح
من كمال المعرفة ما يبهتُ العقل ويعظم لذته بحيث يكاد
القلب ينفطر لعظمته ولكن يكون ذلك كالبرق الخاطف

وقلّما يدوم بل يعرض من الشواغل والأفكار والخواطر ما يشوّشه وينغصه وهذه ضرورة دائمة فى هذه الحياة الفانية ولا تزال هذه اللذة منغصة الى الموت: وانما الحياة الطيبة بعد الموت :وانما العيش عيش الآخرة :وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون * وكل من انتهى الى هذه الرتبة فانه يحب لقاء الله فيحب الموت ولا يكرهه الا من حيث ينتظر زيادة استكمال فى المعرفة فان بحر المعرفة لا ساحل له والاحاطة بكنه جلال الله محال وكلما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وبأفعاله وبأسرار مملكته وقويت كثر الابتهاج باللقاء وعظم *

اللهم لا تخرجنا من هذه الدار الاّ عارفين مستكملين فى المعرفة مستغرقين فى الوحدانية منقطعين عن علائق الدنيا وزخارفها برحمتك يا أرحم الراحمين *

﴿ خاتمة ﴾

تنعطف فائدتها على ما سبق من معرفة النفس وقواها وبذلك نتدرّج الى معرفة الحق جل جلاله ومعرفة صفاته وأفعاله لأن المبادىء انما تراد للنهايات، والنهايات انما تظهر للمبادىء: فكل علم لا يؤدى الى معرفة البارى جلّ جلاله فهو عديم الجدْوَى والفائدة، وقليل النفع والعائدة *

فنقول إنا أثبتنا النفس على الجملة بمعرفة آثارها وأفعالها فالنفس النباتية عرفناها بآثارها من التغذية والتنمية وتوليد المثل: والنفس الحيوانية بآثارها من الحس والحركة الاختيارية * والنفس الانسانية بالتحريك وإدراك الكليات : وعلمنا أن هذه الأفعال تتعلق بمبدأ يسمى ذلك المبدأ نفسا فيكون قوامها ووجودها وخاصيتها بذلك المبدأ الذى هو النفس فكذلك فاعلم أن الموجود على قسمين - إما أن يتعلق وجوده بغيره بحيث يلزم من عدم ذلك الغير عدمه أو لا يتعلق فان تعلق سميناه ممكنا وإن لم يتعلق سميناه واجبا بذاته : فيلزم من هذا فى واجب الوجود معرفة أمور *

الأمر الاول أنه لا يكون عرضا لأنه يتعلق بالجسم ويلزم عدمه بعدم الجسم *

الثانى لا يكون جسما لأن الجسم منقسم بالكمية الى الأجزاء فتكون الجملة متعلقة بالأجزاء فتكون معلولة وأيضا فان الجسم مركب من المادة والصورة وكل واحد منهما متعلق بالآخر نوع تعلق *

الثالث أنه لا يكون مثل الصورة لأنها متعلقة بالمادة ولا يكون مثل المادة لأنها محل الصورة ولا توجد الا معها *

الرابع أنه لا يكون وجوده غير ماهيته لأن الماهية غير

الآنية والوجود الذى الأنية عبارة عنه عارض للماهية وكل عارض معلول لأنه لو كان موجوداً بذاته ما كان عارضاً لغيره إذ ما كان عارضا لغيره فله تعلق بغيره : وعلته إن كان غير الماهية فلا يكون واجب الوجود الذى يتعلق به كل الموجودات وإن كان علته الماهية فالماهية قبل الوجود لا تكون علة لأن السبب ماله وجود تام فقبل الوجود لا يكون له وجود فثبت أن واجب الوجود إنيته ماهيته وإن وجوب الوجود له كالماهية لغيره : ومن هذا يظهر أن واجب الوجود لا يشبه غيره البتة ولا يصل أحد الى كنه معرفته *

الخامس أنه لا يتعلق بغيره على وجه يتعلق ذلك الغير على معنى أن يكون كل واحد منهما علة للآخر فيتقابلان فان هذا محال ٥

السادس أنه لا يتعلق بغيره على وجه يتعلق ذلك الغير به على سبيل التضايف لأنه يكون ممكن الوجود *

السابع أنه لا يجوز أن يكون شيئان كل واحد منهما واجب الوجود كما لا يكون للبدن الواحد الا نفس واحدة فلا يكون للعالم الا ربٌّ واحد هو مبدع الكل ويتعلق به الكل تعلق الوجود والبقاء : وأيضا فلو كان واجب الوجود اثنين فبمَ يتميز أحدهما عن الآخر فان كان بعارض فيكون

كل واحد منهما معلولا وإن كان بذاتي فيكون مركبا ولا يكون واجب الوجود *

الثامن إن كل ماسوى واجب الوجود ينبغي أن يكون صادراً من واجب الوجود كما أن النفس كمال جسم طبيعي آلي فكذلك الرب موجد الكل وبه كمال الكل وبقاء الكل وجمال الكل : وقد ذكرنا أن واجب الوجود لا يكون الا واحدا فما عداه لا يكون واجبا بل ممكنا فيفتقر الى واجب الوجود *

فان قيل فما الدليل علي أن في الوجود موجدا واجب الوجود يتعلق الكل به ولا يتعلق وجوده بغيره فيكون منتهى الموجودات ومن عنده نيل الطلبات *

قلنا لأن الموجود إما أن يكون واجب الوجود أو ممكن الوجود : وممكن الوجود لابد وان يتعلق بغيره وجودا ودواما والعالم بأسره ممكن الوجود فيتعلق بواجب الوجود أما ماينبني على بيان أن النفس جوهر ليس له مقدار وكمية وقد أثبتنا ذلك ببراهين — فاعلم أولا أن النفس جوهر والباري ليس بجوهر لأن الجوهر هو الموجود لا في موضوع أي اذا وجد يكون وجوده لا في موضوع وهذا يشعر بالحدوث: والجوهر عبارة عن حقيقة وجود :وواجب الوجود حقيقته

وجوده ووجوده حقيقته فاذا عرفت هذا فاعلم أنا أثبتنا وجود
النفس وانه جوهر ببرهان خاصى وبرهان تقريبىّ المقدمات
والبرهان الخاصى ان النفس لايعزب ذاته عن ذاته واذاكان فى
الوجود من مبدعاته مايكون بهذه الصفة فما تقول فى موجود
ينال به كل حق وجوده فان كل حق من حيث حقيقته الذاتية
التى بها هو حق متفق واحد غير مشار اليه فكيف القيوم
على الملكوت: واذا كانت النفس لاتعزب ذاته عن ذاته مع
انه ليس بواحد صرف فالواحد الحق الذى لا يحوم حول
وحدانيته التكثر والتجزّى والتثنى أولى بأن لا يعزب ذاته
عن ذاته فيكون عالما بنفسه وعالما بجميع ما أبدعه واخترعه
وأوجده وكوّنه لا تأخذه سنة ولا نوم وهذا هو معنى الحىّ
فان الحىّ هو الواحد العالم بذاته وقد بيّنا أن النفس واحد
ليس لها كمية ومقدار فكذلك فاعلم أنه ليس للمبدع الحق
سبحانه كمية ومقدار *

ومن هذا يُعرف أن جميع مايهذى به المشبهة من اثبات
الجهات والفوقية والصورة والمكان والانتقال كله باطل وليس
البارى تعالى جوهراً يقبل الاضداد فيتغيّر ولاعرضا فيسبق
وجوده الجوهر ولا يوصف بكيف فيشابه ويضاهى ولا بكم
فيقدّر ويجزأ ولا يضاف فيوازى فى وجوده ويحاذى

ولا بأين فيحاط به ويحوى ولا بمتى فينتقل من مدة الى أخرى ولا بوضع فيختلف عليه الهيئات ويكتنفه الحدود والنهايات ولا بجده (١) فيشمله شامل ولا بانفعال فيغيّر وجوده فاعل *

واذا ثبت أن واجب الوجود ليس فى ذاته كثرة بوجه من الوجوه ولا بدّ من وصف واجب الوجود بأوصاف فلا بد أن تثبت الأوصاف على وجه لا يؤدى الى الكثرة فنزّهه عن أن يكون له جنس أو فصل فان من لا اشتراك له مع غيره فلا فصل له يفصله عن سواه - ومن هذا يُعلم أن جميع أسمائه تعالى حتى الوجود على سبيل الاشتراك لا على سبيل التواطؤ ولا تثبت الصفات على وجه يكون عرضيا كاللون القائم بالمحلّ وكعلمنا العارض على الذات لأن هذا يؤدى الى تقدم وتأخر وتكثر بل تثبت الصفات على وجه الاضافة الى الافعال أو على سبيل العلل والأسباب والموادّ عنه *

فيتبيّن من هذا أنه حىّ لأنه عالم بذاته ونثبت أنه عالم لانه مجرد عن المادّة ووجوده لذاته وما يكون واحداً بريئا عن المادة تكون ذاته حاصلا له فيكون عالماً بذاته لا يعزب عنه ذاته وعلمه بذاته ليس زائداً على ذاته حتى يوجب فيه كثرة

«١» الجده مقولة الملك كالتختّم والتعمم ونحوهما*

وذلك لأن الانسان اذا علم نفسه فمعلومه أهو غيره أو عينه فان كان غيره فانه لم يعلم نفسه بل علم غيره وان كان معلومه هو عينه فالعالم هو نفسه والمعلوم هو نفسه: فقد اتحد العالم والمعلوم فكذلك فافهم في الباري جلّ جلاله: وكما أن العالم هو المعلوم فكذلك العلم هو المعلوم كما أن الحس هو المحسوس لأن المحسوس هو الذي انطبع في الحاس لا الخارج فكذلك العلم هو المعلوم وانما تختلف العبارات بالعلم والعالم والمعلوم وتبيَّن منه انه عالم بجميع أنواع الموجودات وأجناسها فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر لأنه يعلم ذاته فينبغي أن يعلمه على ماهو عليه لأن ذاته مجرد لذاته: وذاته مبدأ ومبدع لجميع الموجودات وهو فياض يفيض الوجودَ على الكل فيعلم ما يوجده ويتبع ذاته وكثرة المعلوم المتعدّدة لا تؤدّي الى كثرة في ذاته لأن علمه لا يبتني على تقديم المقدمات وإجالة الفكر والنظر : وذاته فياضة للعلوم على الخلق لا انه يكتسب من الخلق علماً : فعلمه سبب الوجود لا الوجود سبب علمه وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو: وهو كما يعلم الأجناس والانواع يعلم الممكنات الحادثة وان كنا نحن لا نعلمها لأن الممكن ما دام يُعرَف ممكنا يستحيل ان يعلم وقوعه أولا

وقوعه لانه انما يعلم منه وصف الامكان : ومعناه انه يمكن أن يكون ويمكن أن لا يكون ولكن كل ممكن بنفسه فهو واجب بسببه فان علم وجود سببه كان وجوده واجبا فلو اطلعنا على جميع أسباب شيء واحد وعلمنا وجودها قطعنا بوجود ذلك الشيء *

والأوّل الحق يعلم الحوادث وأسبابها لأن الكل يرتقى اليه فى سلسلة الترقى فلما كان عالما بترتيب الاسباب كان عالما بالكل أسبابها ونتائجها فنزّه علمه عن الحس والخيال والتكثر والتغير : ثم بعد ذلك فافهم علمه فاذا فهمتَ علمه فاعلم أنه مريد وله ارادة وعناية ولكن ارادته وعنايته لا تزيد على ذاته : وبيانه انه مريد لانّ الفاعل إما أن يكون بالطبع وتعالى عنه أو بالارادة والطبعُ هو الفعل الخالى عن العلم بالمفعول بل يدخل الافعال الطبيعية فى الوجود على سبيل التسخير : والفاعل بالارادة هو الذى له العلم بمفعولاته فاذاً هو عالم بمفعولاته ومخلوقاته وهو راض به غير كاره فيجوز أن يعبر عن هذا بالارادة *

وعلى الجملة فتخصيص الأفعال وتميزها بعضها عن بعض دليل على وجود الارادة : وعنايته هو تصور نظام الكل وكيفية معلولاته على الوجه الأحسن الأبلغ فى النظام

وليس له ميل وغرض يحمله على ما يريده فليس شيء أولى به ولا يفعل ليخاصَ عن مذمة أو يطلب محمدة *

وكذلك كما أنه عالم مريد فهو قادر لأن القادر عبارة عمن يفعل ان شاء ولا يفعل ان لم يشأ: والقادر قادر باعتبار أنه يفعل ان شاء لا باعتبار انه لا بد وان يشأ: فكل ما هو مريد له فهو كائن وما ليس مريداً له فغير كائن: والأول تعالى حكيم لأن الحكمة إمّا أن تكوز عبارة عن العلم بحقائق الاشياء ولا أعلم منه أو تكون عبارة عمن يفعل فعلا مرتبا محكما جامعا لكل ما يحتاج اليه من كمال وزينة وفعله هكذا فى غاية الاحكام والكمال والجمال والزينة: أعطى كل شيء خلقه ثم هدى *

وهو جوّاد لأن الجود إفادة الخير والانعام به من غير غرض: فالأول تعالى أفاض الجود على الموجودات كلها كما ينبغى وعلى ما ينبغى من غير ادخار ممكن من ضرورة أو حاجة أو زينة وكل ذلك بلا غرض ولا فائدة فهو الجواد الحق والوهاب المطلق واسم الجود على غيره مجاز: والأول تعالى مبتهج بذاته على معنى كمال العلم وكمال المعلوم أو كمال الجود والفضل على الموجود لأنه أشد الأشياء ادراكا لأشد الاشياء كمالا الذى هو منزه عن طبيعة الامكان والمادة

والكمال فى البراءة عن المادة ولوازمها والتقدس عن طبيعة الامكان ولواحقها *

﴿ خاتمة واعتذار ﴾

اعلم أنا وان تدرجنا الى معرفة ذاته وصفاته من معرفة النفس فذلك على سبيل الاستدلال وإلاّ فالله تعالى منزه عن جميع صفات المخلوقات فلا يوصف جلّ أن يوصف: وجلّ أن يقال جل: وعزّ أن يقال عزّ: وأكبرُ أن يقال أكبر: واذا بلغ الكلام الى الله تعالى فامسكوا «لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» وفوق ما يصفه الواصفون * فلك العلوّ الأعلى فوق كل عال والجلال الأمجد فوق كل جلال ضلت فيك الصفات وتقدست دونك النعوت وحارت في كبريائك لطائف الأوهام ـ وهذه كلمات الأبرار المصطفين الأخيار *

وهذا دليل على أنه لا يجوز أن يقال فى حقه ما يجرّ نفعاً أو يدفع ضرّاً أو يجلب سروراً أو يوجب لذة وابتهاجاً أو يحدث فرحاً وضحكا أو يورث عشقاً ومحبة تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً * وما ورد من هذه الألفاظ فى القرآن والاخبار فتفسّر بثمراتها ونهاياتها لا بعوارضها ومباديها *

﴿ القول فى معرفة ترتيب أفعال الله ﴾

« وتوجيه الاسباب الى المسببات »

وهذا أيضاً انما يعلم من ترتيب معرفة تأثير النفس فى قواها وبدنها *

اعلم أن مبدأ فعل الآدمى ارادة يظهر أثرها أولاً فى القلب فيسرى منه أثر بواسطة الروح الحيوانى الذى هو بخار لطيف فى تجويف القلب الى الدماغ ثم يسرى منه أثر الى الأعصاب الخارجة من الدماغ ومن الاعصاب الى الأوتار والرباطات المتعلقة بالعضل فينجذب به الأوتار فيتحرك به الأصبع: فيتحرك بالأصابع القلم وبالقلم المداد مثلا ويحدث منه صورة ما يريد كتابته على وجه القرطاس على الوجه المتصور فى خزانة التخيل فانه ما لم يتصور فى خياله صورة المكتوب أولاً لايمكن احداثه على البياض ثانياً *

ومن استقرأ أفعال الله تعالى وكيفية احداثه النبات والحيوان على الارض بواسطة تحريك السماوات والكواكب وذلك بطاعة الملائكة له بتحريك السماوات علم أن تصرف الآدمى فى عالمه أعنى بدنه يشبه تصرف الخالق فى العالم الاكبر وهو مثله وانكشف له أن نسبة شكل القلب الى تصرفه نسبة العرش . ونسبة القلب الى الدماغ نسبة العرش الى الكرسى وان الحواس له كالملائكة الذين يطيعون طبعاً ولا يستطيعون لأمره خلافاً . والاعصاب كالسماوات والقدرة

في الأصبع كالطبيعة المسخرة المركوزة فى الأجسام والمواد كالعناصر التى هى أمهات المركبات فى قبول الجمع والتفريق والتركيب والتمزيج : وخزانة التخيل كاللوح المحفوظ فمهما اطلع بالحقيقة على هذه الموازنة عرف كيفية ترتيب أفعال الله تعالى فى الملك والملكوت وذلك يحتاج الى تطويل وهذه إشارة الى جملتها *

﴿ أقسام أفعال الله سبحانه وتعالى ﴾

قد ذكرنا أن القوى تنقسم الى محركة ومدركة: والمدركة تنقسم الى ظاهرة كالحواس الخمس: وباطنة كالمشاعر الباطنة كالتخيل والوهم وغير ذلك ثم ما يختص بالانسان العقل وهو ينقسم الى العقل النظرى والعملى :فكذلك فافهم ان جميع أفعال الله تعالى تنقسم الى عقول مجردة عن المواد مشاهدة لجلال الله تعالى ولهم رموق الجلال الأعلى ولهم الوصول بلا انفصال والى نفوس محركة للسماوات والى أجسام : وكما أن الجسم الذى هو البدن يتأثر من القوى المركبة فيه ولا يؤثر والعقل العملى يؤثر فى القوى الحيوانية ويتأثر من العقل النظرى والقوى الحيوانية تتأثر من العقل العملى وتؤثر فى الجسم وأعضاء البدن فكذلك فافهم أن جميع أفعال الله تعالى تنقسم الى هذه الاقسام متأثر لا يؤثر ومؤثر لا يتأثر: فالمتأثر الذى

لا يؤثر هو أجسام العالم : والمتأثر الذى يؤثر هى النفوس فيتأثر
من العقول ويؤثر فى أجسام السماوات بالتحريك وبواسطة
تحريك السماوات فى عالم العناصر : والعقول تؤثر ولا تتأثر
بل كمالاتها حاضرة معها ليس لها استكمال وان كانت تلك
الكمالات من ربها وخالقها ومبدعها تعالى وتقدس فالطبيعة
فى عالم الأجسام مسخرة للنفس تفعل فعلا سواء علمت ما تفعل
أولم تعلم كما أن النفس مدبرة للعقل تعلماً سواء طلبت العلوم
أولم تطلب فانتهجت الطبيعة بالتسخير منهاج ما فوقها بالتدبير
وعبّر التنزيلُ عن ذلك بقوله (والسماء بنيناها بأيد وانا
لموسعون * والأرض فرشناها فنعم الماهدون * ومن كل شىء
خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) فالمخلوقات كلها مفطورة على
الازدواج لطيفها وكثيفها : معقولها ومحسوسها : ففى المركبات
ازدواج : وفى البسائط ازدواج وبين البسائط والمركبات
ازدواج والنفوس بواسطة الأفلاك معطية والعناصر قابلة :
وبين المعطى والقابل نتائج ومواليد من المعادن والنبات
والحيوان والانسان وبين العقل والنفس ازدواج كما بين القلم
واللوح ازدواج : ومواليدهما الروحانيات من العقول والنفوس
ومن له الخلق والأمر متعال على الازدواج أداءً وقبولا
سبحانه أن يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخالق كل شىء

فقدّره تقديرا *

﴿ تقسيم آخر ﴾

وهو أن القوى الحيوانية والانسانية مع جسم البدن متفاوتة فى الفضل والكمال مترتبة فى الشرف والتمام *

فكذلك فاعلم أن الموجودات باعتبار الكمال والنقصان تنقسم الى ماهو بحيث لايحتاج الى ان يمدّه غيره ليكتسب منه وصفا بل كل ممكن فهو موجود له حاضر معه ويسمّى تاما والى مالايحضر معه كل ممكن له بل لابد من أن يحصل له ماليس حاصلا له وهذا يسمى ناقصا قبل حصول التمام له ثم الناقص ينقسم الى ما لايحتاج الى امر خارج عن ذاته حتى يحصل له ما ينبغى أن يحصل فهذا يسمى مكتفيا والي مايحتاج ويسمى ناقصا مطلقا : فالتام هو العقل والناقص هو الأجسام والناقص من وجه كامل من وجه هو النفس كما ان البدن وكل ما تركب من العناصر ناقص والكامل هو العقل: والناقص الكامل هو القوى الروحانية من التخيل والوهم وغير ذلك *

﴿ نوع آخر من المعرفة ﴾

وكما أن حركة الجسم يدل على المحرك والمتحرك اذا لم يكن طبيعيا فيدل على مدرك يحركه بالارادة والمدرك قد يكون ظاهرا وقد يكون باطنا وقد يكون عقليا نظريا أو عمليا *

فكذلك فاعلم أن وجود الأجسام مقعر فلك القمر قابلة للتركيب فان الطين مثلا مركب من الماء والتراب *

فنقول هذا التركيب المشاهد يدل على وجود الحركة المستقيمة وتدل الحركة من حيث مسافتها على ثبوت جهتين محدودتين مختلفتين بالطبع ويدل اختلاف الجهتين على وجود جسم محيط كالسماء وتدل الحركة من حيث حدوثها على أن لها سببا ولسببها سببا الى غير نهاية ولا يمكن ذلك الا بحركة السماء حركة دورية والحركة الدورية لا تكون الا ارادية والارادة الجزئية لا تكون الا مستمدة من ارادة كلية والارادة الجزئية تكون للنفس : والارادة الكلية تكون للعقل *

فقد ثبت بهذا وجود العناصر القابلة للتركيب ووجود السماوات المتحركة المحركة للعناصر : والسماوات المتحركة تدل على محركات هي نفوس سماوية والنفوس مستمدة من العقول والكل مستند الى الله تعالى ابداعاً وانشاءً واختراعاً وخلقاً واحداثاً وتكويناً وايجاداً وابداءً واعادةً وبعثاً فله المُلك كله والمِلك كله هو الأول بلا اول كان قبله: الآخر بلا آخر يكون بعده الذى قصرت عن رؤيته أبصار الناظرين * وعجزت عن نعته أوهام الواصفين ابتدع الخلق بقدرته ابتداعا واخترعهم على مشيئته اختراعاً *

فأشرف المبدَعات هو العقل ابدعه بالامر من غير سبق مادة وزمان وما هو الا مسبوق بالامر فقط ولا يقال في الأمر انه مسبوق بالبارى تعالى ولا مسبوق بل التقدم والتأخر انما يعتوِران على الموجودات التى هى تحت التضاد والبارى تعالى هو المقدم المؤخر لا المتقدم المتأخر : وما دون العقل هو النفس وهو مسبوق بالعقل : والعقل متقدم عليه بالذات لا بالزمان والمكان والمادة: فالسبق بالذات انما ابتدأ من العقل فقط : والسبق بالزمان انما ابتدأ من النفس : والسبق بالمكان انما ابتدأ من الطبيعة فالطبيعة اذاً سابقة على المكان والمكانيات ولا يعتورها المكان بل يبتدى المكان من تحريكها أو حركتها فى الجسم : والنفس سابقة على الزمان والزمانيات ولا يعتورها الزمان بل الزمان والدهر يبتدىء منها أعنى من شوقها الى كمال العقل : والعقل سابق على الذوات والذاتيات ولا يعتوره الذات والجوهرية بل الجوهرية انما تبتدىء منه أعنى هو مبدأ الجواهر والسابق على الذوات والجواهر والدهر والزمان والمكان والجسم والمادة والصورة ولا يوصف بشىء مما تحته الا بالمجاز : ومن له الخلق والأمر فله المُلك والملَك وهو الأول والآخر حتى يعلم أنه ليس بزمانى وهو الظاهر والباطن حتى يعلم أنه ليس بمكانى جل جلاله وتقدست أسماؤه

ونعنى بالأمر القوة الالهية والذى يقال من أن العقل صدر عنه بالابداع شىء ليس ادعاء بانه المبدع كلاّ بل نعنى به تنزيه الحق الأول أن يفعل بالمباشرة : فأما المبدع بالحقيقة فهو من له الخلق والأمر تبارك اسمه *

وكما أن النفس واحدة ولها قوى واشراقها على البدن والروح الحيوانى يفعل فى كل موضع فعلا آخر لاختلاف القوى ففى موضع الابصارَ وفى موضع السمع : وفى موضع الشمّ وفى موضع الحسّ المشترك :وفى موضع التخيّل والتوهّم وغير ذلك ـ فكذلك أمر الاول الحق جلّ جلاله بالنسبة الى وجود العقل ابداع :وبالنسبه إلى وجوده فى دوامه تكميل بالفعل: وبالنسبة الى النفس تتميم وتوجيه من القوة الى الفعل وبالنسبة الى الطبيعة تحريك :وبالنسبة الى الاجسام تصريف وبالنسبة الي الطبائع والعناصر تعديل:وبالنسبة الى المركبات تصوير وبالنسبة الى المصوّرات أحياء وبالنسبة الى الحيوان احساس وهداية : وبالنسبة الى العقل الانسانى تكليف وتعريف * وبالنسبة الى الانبياء عليهم الصلاة والسلام أمر وكلام وكلمات وقول وكتاب ورسالات (ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء انه علىّ حكيم) فالامر الأعلى بالنسبة الى

المكونات عبارة عن التكوين والابداع : وبالنسبة الى جزئيات المكلفين عبارة عن القول الذى هو الامر والنهى والوعد والوعيد والخبر والاستخبار فظاهر الأمر التكوينى أوضاع الملائكة وسوقها الموجودات الى كمالاتها وكمالات الموجودات قبولها الأمر وكمالات المكلفين قبولها للثواب : فمن لم يقبل الامر أُخرج من عالم الحق والاخراج من الحق لعن كحال الشيطان الاول إذ لم يقبل الأمر فأُخرج من جنة العقل وقيل اخرج منها فانك رجيم وذلك معنى اللعن : ومن قبل الامر أدخل فى عالم الثواب وتحققت فيه الملكية كحال الملائكة المأمورين بالسجود إذ قبلوا فدخلوا فى عالم الثواب *

« فصل »

وكما لا يستغنى القوى النباتية والحيوانية والانسانية عن إمداد النفس لحظة واحدة بل لابد من دوام الاشراق عليها وامداد تأثيرها حتى ينتظم العالم الصغير فكذلك فى العالم الكبير نقول فى المبدأ إن كل صاحب مرتبة وإن تولى ما قيض له وارصد لعمله فلن يستغنى عما فوقه بالامداد له والافاضة عليه والنظر اليه والتأييد له وكذلك فى العود إن كل صاحب مرتبة وإن نقل عمله الى مافوقه فلن ينقطع عمله من معملته بالكلية ولو انقطع عمل الطبيعة لبطلت القوى

النباتية وبيطلانها بطلت القوى الحيوانية — وكذلك لو انقطع عمل النفس لبطلت القوى الحيوانية وببطلانها بطلت الانسانية وكذلك لو انقطع عمل العقل لبطلت القوى الانسانية وببطلانها بطلت النبوة *

فالطبيعة حافظة للنفس النباتية : والنفس حافظة للنفوس الحيوانية : والعقل حافظ للنفس الناطقة الانسانية وأمر البارى تعالى حافظ للنفس القدسية النبوية إن كل نفس لما عليها حافظ ـ هذا على العموم له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله : أى بأمر الله ـ وهذا على الخصوص فالأول الحق كما أبدع العقل الأول أكمله بالفعل : وكما اخترع بواسطة النفس أتمها بالقوة المتوجهة الي كمال العقل : وكما ابتدع بواسطتها الطبيعة أمدّها بالتحريك وكما أحدث الأجسام قدرها بالتصريف وكما ركب العناصر سوّاها بالاعتدال : وكما عدل الأمشاج والامزجة أظهرها بالتصور : وكما صورها أحياها بالنفوس : وكما سخرها بالنفوس دبرها بالعقول : وكما دبر العقول ساقها الى معادها بالتكاليف والشرائع فأمر ونهى وبشر وأنذر ووعد وأوعد على لسان الانبياء عليهم الصلاة والسلام *

وبالجملة ليس خلقه العالم كمن بنى داراً وسرّح فيها من عبيده خلقا كثيراً فرتب لكل واحد منهم ماخلقه لأجله

وقطع عنهم نظره وتدبيره وعلمه وقدرته وإرادته فهم بخالقه يعملون للأمر وبحكمه يتصرفون : فلا الدار محتاجة في بقائها الى ممسك اذ قد استغنى البناء عن البانى كما ظنه قوم ولا أهلها محتاجون الى مدبّر ومقدّر اذا استغنوا بفطرتهم على ماهم عليه عن تجديد أحد وبنيان بان كما يخيله قوم بل كما كانوا محتاجين فى وجودهم الى خلقه تعالى كانوا محتاجين فى دوام وجودهم الى أمره تعالى وكما لم يكن وجودهم بذواتهم لم يكن دوام وجودهم بذواتهم فهو القيوم على الملكوت جل جلاله *

﴿ فصل ﴾

وكما استكمل الآدمى بدنا بالطبيعة حتى عاش فى هذا العالم فيجب أن يستكمل نفسا بالشريعة حتى يعيش فى ذلك العالم فقيضت الملائكة مسخرين للطبيعة فحصل كمال الأبدان وبعث الانبياء عليهم السلام مدبرين للشريعة حتى حصل كمال النفوس وكما أن الصفوة فى المزاج إنما حصلت بابتلاء الامشاج واستخلاص المواد حتى صار مولودا سميعا بصيراً في هذا العالم كذلك الصفوة فى النفوس إنما حصلت بابتلاء التكاليف واستخلاص النفوس حتى صار سميعا بصيراً كاملا فى ذلك العالم ولولا تلك التصفية لم يكن ليبعث ملك إلى عالم الأرحام ولولا هذه التصفية لم يكن ليبعث نبيّ الى عالم الاحكام *

وأعجِبْ بروحانيين متوسطين فى الخلقِ وجسمانيين متوسطين فى الأمر : والملائكة يحشرون الخلق من التراب الى تمام الخلقة الانسانية لهذا العالم : والانبياء عليهم السلام يحشرون الخلق من الجهل الى تمام الفطرة الملكية لذلك العالم فالملائكة والانبياء عليهم السلام فى عالمى الخلق والأمر عمال الامر الأعلى وكلٌّ بأمره يعملون ومن خشيته مشفقون * يسبحون الليل والنهار لايفترون . فان قال قائل ماذكرتم فى إثبات هذه المعارج والموازنات بين النفس وبين الله تعالى وصفاته وأفعاله كلها تشير الى إثبات مشابهة ومضاهاة بين العبد وبين الله * ومعلوم شرعا وعقلا إن الله ليس كمثله شىء وهو السميع البصير : وأن لايشبه شيأ ولا يشبهه شىٌ *

فالجواب أن نقول قد أشرنا فى إثبات هذه المعارف مايوجب تقدس البارى من جميع صفات مبدعاته ومكوناته ومع هذا مهما عرفت معنى المماثلة المنفية عن الله سبحانه وتعالى عرفت أنه لامثال له ولا ينبغى أن نظن أن المشاركة فى كل وصف توجب المماثلة أفترى أن الضدين متماثلان وبينهما غاية البعد الذى لايتصور أن يكون بعدٌ فوقه وهما يشتركان فى أوصاف كثيرة إذ السواد يشارك البياض فى كونه عرضا وفى كونه لونا وفى كونه مدركا بالبصر وأمر آخر سواه أفترى

إن من قال إن الله موجود لا فى محل وإنه حى سميع بصير عالم مريد متكلم قادر فاعل : والانسان أيضا كذلك قد شبه وأثبت المثل هيهات ليس الأمر كذلك فلو كان كذلك لكان الخلق كلهم مشبهة إذ لا أقل من إثبات المشاركة فى الوجود وهو يوهم المشابهة بل المماثلة عبارة عن المشاركة فى النوع والماهية : والفرس وان كان بالغا فى الكياسة لايكون مثلا للانسان لأنه مخالف له فى النوع وانما يشابهه فى الكياسة التى هى عارضة خارجة عن النوع والماهية المقومة لذات الانسانية : الخاصية الالهية هى الموجود بذاته الذى يوجد عنه كل ما فى الامكان وجوده على أحسن وجوه النظام والكمال وهذه الخاصية لايتصور فيها مشاركة البتة : والمماثلة بها لاتحصل فكون العبد رحيما صبوراً شكوراً لايوجب المماثلة ككونه سميعا بصيراً عالما قادراً حياً فاعلا *

بل أقول الخاصية الالهية ليست الا لله تعالى ولا يعرفها إلا الله تعالى ولا يتصور أن يعرفها إلا هو ولذلك لم يعط أجل خلقه إلا اسماء حجبه بها فقال « سبح اسم ربك الا على » فوالله ماعرف الله غير الله فى الدنيا والآخرة يعنى على سبيل الاحاطة والكمال * فهو الله المنزه عن الماهية * الأحد المقدس عن الكمية : الصمد المتعالى عن الكيفية الذى لم يلد بل هو

المبدع ولم يولد بل هو قـديم الوجود : ولم يكن له كفواً أحد فى ذاته وصفاته وأفعاله ـ هذاما أردنا أن نذكره في هذا الـكتاب : وقد كشفتُ الغطاء عن وجوه الأسرار المخزونة ورفعتُ الحجاب عن كنوز العلوم ودللت على الأسرار المخزونة وأبديتُ فيه العلوم المـكنونة المضنون بها تقربا الى الاخوان الذين لهم قوة القريحـة وصفاء الذهن وزكاء النفس ونقاء الحدس: وتيقنا بأن الزمان قد خلا من الوارثين لهذه الأسرار تلقفا ومن المقتصرين على الاحاطة بهـا استنباطا وتأسّياً من أن يكون للراغب فى تخليد العلم وإيراثه من بعده وجه حيلة الا تدوينه وإيداعه الـكتب مسطراً مرقوما دون الاعتماد على رغبة متعلم فى تحققه على وجهه وحفظه وإيراثه من بعده ودون الاعتماد على همم أهل العصر ومن يكون بعدهم مثلهم فى البحث والتفتيش وإزالة الاشكال وحلّ الاشكال والغوص فى غوامض العلوم : فمن أين للغراب هوىّ العقاب : ومن أين للضباب صوبُ السحاب : ثم إنى حرّمت على جميع من يقرؤه من الاخوان الذين لهم المناسبة العلوية والقريحة الصافية أن يبذله لنفس شرّيرة أو معاندة أو يطلعها عليه أو يضعه فى غير موضعه *

فمن منح الجهّال علما أضاعه * ومن منع المستوجبين فقد ظلم

فان وجـد من يثق بنقاء سريرته واستقامة سـيرته وبتوقفه عما يتسرّع اليـه الوسواس وبنظره الى الحق بعين الرضا والصـدق فليؤته مجزئا مدرّجا يستغرس مما يسلفه لما يستقبله وعاهده بالله وبأيمان لامخارج لها أن يجرى فيما يؤتيه مجراك متأسـيا بك فان أذاع هذا العلم وأضاعه فالله بيني وبينه وكفى بالله حسيبا : وحسبنا الله ونعم الوكيل : نعم المولى ونعم النصير

﴿ تم ﴾



﴿ تنبيه ﴾

وجد فى آخر النسخة التى طبعنا عليها هذا الكتاب هذه العبارة :

قد استراح من كد الانتهاض الى نقل هذا الكتاب من السواد الى البياض : احمد بن شعبان بن يحيي الأندلسى المعروف بابن عبد العزيز الامير
وذلك بتاريخ يوم الأربعاء
الخامس عشر من شهر
رجب الأصم . من
سنة ١٠٦٦ هـ
على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم *

وان تجد عيبا فسدّ الخللا * جلّ من لا عيب فيه وعلا

وقد قابلته مع نسخة أخرى بتونس بمساعدة حضرة الفاضل الأديب السيد عبد الحميد الخميرى التونسى حينما كنت نزيلا بها سنة ١٣٤٥ هـ مخطوطة بتاريخ ٩٢٣ هجرية : فجاء بحمد الله كاملا فى تصحيحه تاماً فى تهذيبه وتنقيحه *

﴿ القصيدة الهائية ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

ما بال نفسي تطيل شكواها … الى الورى وهي ترتجى الله
يفسد إخلاصها شكايتها … ذاك الذى راعها وأرداها
لو أنها من مليكها اقتربت … وأخلصت ودّها لأدناها
لكنها آثرت بريته … عليه جهلا به فأقصاها
أفقرها للورى ولو لجأت … اليه من دونهم لأغناها
تشكو الى خلقه كأنهم … قد ملكوا نفعها وضرّاها
لو فوضت أمرها لخالقها … وصححت صدقها وتكلاها
عوّضها من همومها فرجا … ولم يدعها بطول غمّاها
تسخطه فى رضا بريته … تبأ لها ما أجلّ بلواها
لو أنها للعباد مسخطة … مرضية ربها لأرضاها
لدىّ نفس أحب أنعتها … لتعرفوا نعتها وأسماها
فاسمع صفاتى لها لعلك أن … تفهم ذا اللب سرّ معناها
تسعى الى اللهو وهو غايتها … ياويلها ما أضرّ مسعاها
أزجرها وهى لى مخالفة … كأننى لست من أوداها
تنظر فى عيب غيرها سفها … وكم عيوب لها فتنساها
قد ظلمتنى بسوء عشرتها … ولم تدع لى تقوى ولا جاها

كثيرة اللغو فى مجالسها قليلة الذكر فى مصلاّها
قليلة الشكر عند نعمتها ضعيفة الصبر عند بلواها
بطيئة السعى فى مصالحها سريعة الجرى فى بلاياها
كثيرة المطل فى مواعدها كذوبة فى جميع دعواها
بصيرة بالهوى وفتنته عمية عن أمور أخراها
نشيطة عند وقت لذتها كاسلة عند وقت ذكراها
نؤومة العين عن عبادة من أتقن تصويرها فسوّاها
كثيرة الأمن عند صحتها عظيمة الخوف عند ضراها
حليفة الكبر والرياء فقد أفسدها كبرها وأطغاها
عظيمة المدح والثناء لمن برفع مقدارها ومثواها
مطيلة الذم بالقبيح لمن عرّفها قدرها وطغياها
تفرح فى أكلها ومشربها وحبها للمنام أغراها
ذاكرة للورى مساويهم ناسية ماجناه كفراها
كم بين نفسى وبين نفس فتى طهرها بالتقى ونقاها
علمها رشدها وبصّرها ثم بقوت الحلال غذّاها
أقامها فى الدجى على قدم فانهملت بالدموع عيناها
اذا اشتهت شهوة يعوّدها بخوف معبودها فسلاّها
وراضها بالصيام فانقمعت بالرغم عن غيها ومغزاها
ذاكرة للاله شاكرة مخاصة سرها ونجواها
لله نفس امرء موفقة آوت الى ربها فآواها
شرفها ربها وكرمها ومن مياه اليقين أرواها

سمت اليه بحسن فكرتها   ثم صافى ودادها فصفاها
تلك التى إن دعت لحاجتها   أجابها مسرعا ولباها
إن بليت بالخطوب صبرها   أو سألت ما يريد أعطاها
ليست كنفس لدىّ عاصية   آمرها جاهداً وأنهاها
وهى لأمر الاله عاصية   ويلى لما قد جنت وويلاها
كيف الى ربها تتوب وقد   ذلت لشيطانها فأغراها
فكلما قلت نفس ازدجرى   وراقبى فى أمورك الله
صمت عن الحق وهى سامعة   كأننى ما أريد إياها
لو علمت بعض ماله خلقت   أحزنها علمها وأبكاها
لو تعرف الله حق معرفة   لصححت برها وتقواها
لكنها جهلها بخالقها   أغفلها رشدها وألهاها
ياويح نفسى والويح حق لها   إن صدها ربها وأرداها
تغرها لذة الحياة وما   تدرى الى ما يكون عقباها
قد ضقت ذرعا بها وأحبسها   لم أك أعصى الاله لولاها
إن أنا حاولت طاعة فترت   وأظهرت وحشة وإكراها
صرتُ مع النفس فى محاربة   تأمرنى بالهوى وأنهاها
نحن كقرنين فى معاركة   أدرّع الصبر عند لقياها
وهى بجند الهوى مبارزتى   وأى صبر يطيق هيجاها
إن جبنت بالقتال شجّعها   أو ضعفت فى اللقاء قوّاها
أصرعها تارة وتصرعنى   لكن لها السبق حين ألقاها
أحبها وهى لى معادية   كأننى لست من أحباها

عدوة لا أطيق أبغضها ــــ يا ليتنى استطيع أنساها
سابحة فى بحار فتنتها ــــ جاثية فى سدول ظلماها
أحسبها إن أبت موافقتى ــــ خاسرة دينها ودنياها
يارب عجل لها بتوبتها ــــ واغسل بماء التقى خطاياها
إن تك ياسيدى معذبها ــــ من ذا الذى يرتجى لرحماها
فالطف بها واغتفر خطيئتها ــــ إنك خلاقها ومولاها

﴿ القصيدة التائية ﴾

بنور تجل وجه قدسك دهشتى ــــ وفيك على أن لاخفاً بك حيرتى
فيا أقرب الأشياء من كل نظرة ــــ لأبعد شىء أنت عن كل رؤية
ظهرت فلما أن بهرت تجليا ــــ بطنت بطوناً كاد يقضى بردتى
فاوقعت بين العقل والحس عندما ــــ خفيت خلافاً لايزول بصلحة
إذاما ادعى عقل وجودك منكرا ــــ على الحس ماينفيه قال له اثبت
وذلك أن الحس ينفيك صورة ــــ يراها ويرضى العقل فيك بحجة
فمن هاهنا منشا الخلاف ويصعب الـــوفاق بخلف فى اقتضاء الجبلة
فان قلت لم ابصرك فى كل صورة ــــ أراها أحالت ذاك عين بصيرتى
وان قلت إنى مبصر لك انكرت ــــ مقالى ولم تشهد بذالى مقلتى
تجليت منى فىّ حتى ظهرت لى ــــ خفيت خفاء دق عن كل فكرة
على أنه لم يبق لى جبل رأى ــــ تجليك لى الا ودُكّ بصعقة
وناجيتنى فى السر منى فأصبحت ــــ وقد طويت عما سواك طويتى
فما فىّ فضل عنك بخطر فيه لى ــــ سواك فوقتى فيك غير موقت

وديعة روح القدس نفسك ردها　　فمن واجبات العقل رد الوديعة

وما ردها الا بتكميلها بما　　يليق بها من كسب كل فضيلة

فهما تجلت من كدورات عالم الطبيعة شفت جوهرا وتجلت

نصحتك جهدى ان قبلت فلا تكن　　على حكم غش حاملا لنصيحة

وغاية مقدورى فقلت وانما　　قبولك مما ليس فى وسع قدرتى

وهل ممكن اسعاد من كان قد جرى　　له قلم فى اللوح يوماً بشقوة

يظن الفتى لذات دنياه نعمة　　وما هى إلا نقمة فى الحقيقه

ويبلغ منه الجهل ما ليس يبلغ اا　　لعدوّ بحد السيف عند الحفيظة

ونفسك فاحفظها وصُنها فانما　　سعادتها فى فعل كل مشقة

وخالف هواها ما استطعت فانه　　عدوّ لها يبغى لها كل نكبة

لعمرى لقد انذرت انذار مشفق　　وجاوزت فى الايضاح حد الوصية

فقم واسع وانهض واجتهد وابغ مطلقا　　بداك على ما فيك شر صنيعة

فانك من نور مضئ وظلمة　　بما فيك من جسم ونفس نفيسة

تسوس الحياةُ الجسمَ وهى مسوسة　　بما فيك من أسرار علم مصونة

فشيطان رجم أنت أو ملك بما　　تعانيه من فعل قبيح وعفة

ألا ان لى بالنفس منى شاغلا　　به تم لى مادمت من ملكية

جلت شبهة الاعراض عنى بديهة　　توقد كالمصباح فى جوهريتى

رأيت بها النور الالهى لانحا　　وراء ستور للأمور دقيقة

فحققتُ ما قد كنتُ فيه مشككا　　وعاينت ما قد كان فى سرّ خفية

وأدركت ما المقصود من بدأتى وما اا　　لمراد بإحيائى وموتى ورجعتى

بمرآة نفس لاح لى فى صقالها اا　　لمقابل للكونين كل حقيقة

ولم يبق عندى ريبة فى الذى استرا   ب منه اناس فى امور كثيرة

فألقت عصاها النفس منى وأيقنت   بأن سفرت عن وجه نجمى سفرتى

يدل على ما قلتــه حالة الكرى   إذا ركد الاحساس منك برقدة

وقابل لوح الغيب للنفس مثلما   تقابل مرآة باخرى صقيلة

فيطبع مافى اللوح فى النفس فهى من   هناك بعلم الغيب نسخة نسختى

ولو أمكن التجريد فى كل يقظة   لشاهدت لا فى النوم كل عجيبة

وما هو عند الله مثل لآدم   ولا ذنب ذا من ذنب ذاك بنسبة

ويطمع جهلا أن سيدخل جنة   ويغبط فيها نفسه كل غبطة

خلافا لما يعطى القياس ولم يقم   له العقل لولا النقل برهان حجة

أيخرج منها آدماً إثمُ زلة   ويدخل هذا فعله كل زلة

وكيف ترى يقضى الكريم بهفوة   ويدنى اللئيم النذل مع كل ورطة

ولولا حديث فى الشفاعة قد أتى   وتأويل آيات لا يناس وحشة

لما طمعت نفس تفوز بجنة   اذا لم تكن من كل اثم تبرت

ومن ذا اختلاف الناس فى ذاك ظاهر   تقام عليه واضحات الأدلة

واذ كان قد صح الخلاف فواجب   على كل ذى عقل لزوم التقيــة

وترك الأمانى الخوادع بعــد أن   رأى بأبيه آدمٍ كل عــبرة

ولو كان لا يجزى مسىء بفعله   ولا محسن ضاعت أمور البرية

وما كان فى الاحياء والموت حكمة   وكان محالا حكم كل شريعة

ومستبعد إحياؤنا ومماتنا   سدى لا لمعنى فيه سرمشية

أيحسن أن تبنى قصورٌ مشيدة   بأحسن أوضاع وأجمل بنية

وتهدم عدما لا لمعنى وانه   ليقبح هذا فى العقول السليمة

وذلك شيء فعله عبث وما   يدبّرُ هذا الكون بالعبثية

فلم يبق الاّ ان يدبر أمره   حليم محيط العلم عدل الحكومة

فماشقيت نفس أطاعته رهبة   وماسعدت نفس عصته لرغبة

ولكن بنور العلم تسلم هذه   وتعطب جهلا تيك أقبح عطبة

فيا عجبا ممن يروم لنفسه   خلاصا ولم يرغب بها عن جريرة

ومن تائب من ذلة لاترى له   دموع كأفواه الغمام المكبة

ومن مخبر لا يعجز الله قدره   عليه ولا يخشى بوادر نقمة

ومن أشرقت أنوار مرآة عقله   على ظلمات الطبع منه تجلت

ونبت غرس العقل فى القلب مثمرا   لباغى الحيا استقباح كل رذيلة

وماوصلت نفس الى عالم الصفا   بما دون تحصيل العلوم الجلية

وتمييزها عن نوعها بمعارف   يروّجها فى عالم البشرية

وقد يملأ القطر الاناء فيمتلى   به الماء حتى لا مزيد لقطرة

فأخرجتنى عنى بادخال محنة   واوحشتنى منى بأنس محبة

وأسقيتنى من خمر حبك شربة   خمارى بها باق إلى يوم بعثتى

محانى بها سكرى وأثبتنى صحا   فأعجب شيء أن ماحىّ مثبتى

وأقربتنى من رمز طرسى أسطراً   فتمت بها تفصيل عقدك جملتى

وأقررتنى منى علىّ بأننى   صحيفة سرٍّ طيها فيه نشرتى

وأفشيت بى سرى الىّ فأصبحت   وقد أعربت اذ أفصحت عنه عجمتى

وأفهمتنى منى بأن ليس موطنى   مكانا به فى عالم الحس نشأتى

فأبهمت ما أفهمت اذ ليس مدرك   لذلك إلا من خصصت بحكمة

ومن ذا الذى خصصت منك بحكمة   ولم تك قد عممت منك برحمة

فكم أظهرت تلك الاشارات خافيا وان عزبت عن فهم قوم ودقت
وما لاح ذاك البرق الا ليهتدى به الركب لكن ظلمة الجهل أعمت
لقد سمع الواعى وقل الذى وعى لسكر به أهوى أصمت فأصمت
وكم لك داع منك فيك مبصر لعقلك لكن لست تصغى لدعوة
وكل مريض الجسم يمكن برؤه ويعجز أن يشفى مريض البديهة
ويستبعد الجهال كونا بموطن اذا كان لا فى جنب منبت شعبة
ولو علموا ماعالم العقل منهم وأنهم بالحس فى دار غربة
اذا ولد المولود سرّوا بفرحة ومن حقه أن يبدلوها بترحة
ويبكونه عند الممات جهالة ومن حقه إظهار كل مسرة
ولم يعلموا أن الولادة غربة أبيحت له عن خير دار وأسرت
وموتته عود له نحو أهله وأوطانه الأصلية المستلذة
وأعجب من هذا مقالُ جميعهم ترى عابدى الأوثان أجهلُ أمة
وما عظّم الأوثان من كان قبلهم كتعظيم أجسام لهم مضمحلة
فكلٌّ غدا معبوده الجسم فاستووا ولكنهم لم يستووا عند نية
فقد وقعوا مع علمهم فى ضلالة اذا اعتبرت أربت على كل ضلة
فياليت شعرى كيف صمت عقولهم وداعيك فيهم مسمعٌ كل فطنة
وكل فعال لم أكن متقربا الىّ به أعظمت فيه خطيئتى
فقربى به بعد وربحى خسارة وعزى به ذلّ ونفعى مضرتى
لأنى فيه قمت غير موجه لدى فعله وجهى الى وجه وجهتى
فدنت بأمر حرّمته شريعتى واحييتُ حكما قد أماتته سنتى
فكانت بتركى فى مناهيه غفلتى نهاية تأديبى وفرط عقوبتى

تشتت عقلي فيك بعد تجمع كما اجتمعت بلواى بعد تشتت
هوىً فيك لى لا منتهى لامتداده لدىّ ولا منه خلاص بسلوة
ازيد بلىً اذ يستجد ولم يكن بتجديد صبرى فيه أبلى بليتى
يعيد ويبدى أولا منه آخر فقد شفّ جسمى سرّ عود و بداة
ألا لا تلمنى إن شطحت فانه قليل لسكر حلّ بى منك شطحتى
ولا تنهنى إن تهت سكرا معربدا فأنت الذى استحسنت فيك هتيكتى
ولا تلح إن غنّيت فيك تطربا فلو وجدت وجدى الجبالُ لغنت
ومن عجب حمل الجبال هوىً به طلعت وعن حملى قديماً تأبت
فمن قيس ليلى العامرية فى الهوى ومن قيس لُبنى أو كُثيِّر عزة
اذا تليت آيات ذكرى فقابل الـمجنون ذكرى بالسجود لحرمتى
وأوجب كل منهم الوقف عندها وسلّم أن لاقصةً مثل قصتى
فمن فضل كاسى شرب غيرى ولم يكن يقاس بسكرى سكر شارب فضلتى
يبلبل بالى لا لنوح حمامة وينهل دمعى لا لإيماض برقة
ولو كنت محتاجاً للتتميم باعث يحرك أشجانى لبانت نقيصتى
ولكننى منى وفىّ نواعش تحركنى فى كل سرّ وجهرة
فلا رقدة تغدو علىّ بفترة ولا يقظة تغدو علىّ بغفلة
فمن يشك يوماً فى هواه فاننى لى الشكر أولى فى الهوى من شكيتى
تسترت جهدى فى هواك وطاقتى فلما منعت الصبر أبديت صفحتى
فاعلنت ما أسررت فيك فلم يكن بقول ولا فعل سواك فضيحتى
فما لاشتياقى فى افتضاحىَ مدخل ولا لدموع فيك لى مستهلة
وقد كان لى فى الصبر ستر على الهوى بهتكك ستر الصبر أظهرت عورتى

فلا مذهب فى الحب يشبه مذهبى ولا ملة فيـه تقاس بملتى
يكلُّ لسانى عن صفاتى وانما يعبر عنى أننى ذات وحدة
فكل نعيم دون وصلى شقوة وكل ملذ مؤلم عند لذتى
وكل سبيل ليس يفضى سلوكه الىّ فقد أفضى الى كل خيبة
ولولا هوًى لى فيك يحملنى على حنوّى لم أعهد اليك بلفظة
وكنت اذا زلت بك النعل هاويا أقول ألا فاذهب الى حيث ألقت
ولكن ما ينجيك ينجى هويتى كما أن ما يؤذيك نفس أذيتى
وهل أنا إلا أنت ذاتا ووحدة وهل أنت الا نفس عين هويتى
ولولا اعتبار الجسم بالنسبة التي اليه له ماصحَّ عنىّ سيرتى
ولست بذى شكل فيوجب كثرة لذاتى ولا جزءاً فتمكن قسمتى
ويوقع ما بينى وبينك نسبة يظن بها غيرى لموضع شبهة
وانى لم اهبط الى الأرض يبتغى بذلك وضعى بل هبوطى ورفعتى
وتقرير هذا ان دعيت خليفة وما كنت ادعى قبل ذا بخليفة
وصيَّر ملكى عالم الجسم محنة لغاية تدبيرى ومبلغ حكمتى
فان أنا أحسنت الولاية احسنت الى العالم العلوىّ عودى وعزلتى
وعاينت مالا عاينت مقلة ولا أحاطت به أذن وعت حس سمعة
وآثرتُ لذاتى ونيل مآربى وأتبعت نفسى كل شىء أحبت
سددت على نفسى سبيل تخلصى الى الملأ الأعلى الذى هو نزهتى
وأوقعتها فى أسر من لا يرى لها مكانا ولا يحنو عليهـا بعطفة
فلا ندم يجزى ولا حسرة يرى بها فرج يرجى لكشف لشدة
فياويح نفس آثر طيب زائل على طيب باق لايحـد بمدة

يموت الفتى بالجهل من قبل موته ويحيى بروح العلم من بعد ميتة
فما مات حىّ العلم يوما ولم يكن يحىّ ممات الجهل مقدار لحظة
وأنظر أحوال الرجال وقوفهم على برزخ مابين نار وجنة
فاما إلى آلام نفس خبيثة وإما الى لذات نفس نفيسة
فآلام تلك الترك في دار غربة ولذّات هذى العود من بعد غربة
وهل حسرة فى النفس أعظم غصة من البعد عن أهل ودار وجيرة
كما أنه لا شئ أعظم لذة لذى غربة من ملتقى بعد فرقة
كأنى لم أحجب بها وكأنما
هى احتجبت بى فازدهى الناس عشقتى
وغودرت لا يثنى على حسن فعلى الا جميل ولا يلوى على حسن طلعتى
ولو قايسوا بالحسن بينى وبينها لكانت لديهم لانسام بحبة
وشق القلوب الجاهلات التى بها محبتها قالت بهم عن محبتى
وما ذاك شئ يسقط العذر لامرئ أطاع الهوى وانقاد عبداً لشهوة
وهل نافع شق الفؤاد ندامة لدى قدم زلّت ولم تتثبت
فكيف يليق الوصل منى لمؤثر على طيب وصل وصل من هى عبدتى
اذا رضيت عنه يهون عليه فى رضاها وأدنى ذاك تسهيل غصة
على انها اعدا عداه ترتبت له حيلة منها لإمكان فرصة
فهام بها عشقا وآثر وصلها فزل فقادته الى الف لعنة
ولولا الشقا والجهل ما آثر العدى رضاها وجانب طيب وصل الأحبة
وهل أمنى بالفضل مثلى وانما بمثل طباع السوء نحو الدنية
وتأبى الطباع الفاضلات ارتكابها الأمور التى تفضى الى حط رتبة

فكم حسرات فى نفوس يثيرها … بعادى اذا ما العيس للبين ذمت
وكم عبرة تجرى علىّ تأسفاً … وقد فات مالا يسترد بعبرة
وكم قارع سناً علىّ ندامة … وآخر مكوىٌ بنيران حسرة
وكم أنة تغدو على ورنة … تروح اذا ما استشعر القوم فرقتى
وهل هاجرى وجداً بغيرى بالغ … رضاى لصب طالب دار هجرة
لشتان ما بين المقامين انما … المبرز من لاهمه غير عشرتى
ألم تر أنى منتهى قصد مبدعى … ولم تبدع الأشياءُ الاّ لخدمتى
وانّ لاكرامى وتعظيم حرمتى … أشار الى الأملاك نحوى بسجدة
وصير ما فى عالم الكون كله … بحكم اراداتى وطوع مشيتى
فان كنت فى وصل دعيت فلاتمل … الى وصل غيرى واغتنم وصل صحبتى
وخذ جانباً من رفقة بك وكاوا … ببعدك عن وصلى واثبات جفوتى
فعندار تفاع الحجب ما بيننا ترى … محاسن وجه الغانيات وبهجتى
ولا عجنت الاّ بحبك طينتى … ولا لهجت الا بذكرك لهجتى
وردت ورود الهيم فيك من الهوى … شريعة حب هيجت لى غلتى
ولا عجب ان هيجت لىَ غلة … فما تلك عندى منك أول محنة
اذا كان بى امر أرى فيه لى أذى … رضاك فما أحلاه فى قلب ذلتى
لذلك ما أرضاك منى فعلته … ولو غضبت منه كرام عشيرتى
وما بعت فيك النفس الالعلّ أن … أفوز بوصل منك تربح صفقتى
فان أنت أمضيت التبايع بيننا … فبعت وان لم تمض أكسدت سلعتى
وما قدر نفس لى لديك حقيرة … فأجعلها مهرا لأشرف وصلة
ولكن مقل باذل فيك جهده … أحق بوصل من أخى كل ثروة

توحشت من أبناء نوعى ولم يكن — لشىء سوى انسى بقربك وحشتى

تغرّبت عن اهلى اليك وإننى — ليعذب لى فى طيب أنسك غربتى

فكم خلوة قد فزت فيها بجلوة — خرجت بها عنى اليك بفرحة

وطابقت فيها عالم الحس بتة — لتعلم أنى لا أقول برجعة

وفارقت أوطانى واهلى وجيرتى — لتعلم أنى باذل فيك مهجتى

ولولا دخولى فى رضاك بكل ماا — تطعت لعزّت فيك عنى خرجتى

وكان بودىّ لو قبلت تقربى — اليك ولكن لست أهلا لقربة

وهل انا الا نطفة من سلالة — لطين وما مقدار قيمة نطفة

لعمرى لقد حاولت امراً امره — عزيز ولكن انت اهل العطية

وليس اعترافى باتضاعى بمانعى — سؤالك أمراً دونه قدرُ قيمتى

وليس على قدرى سؤالى فاننى — أرى أن قدرى دون مقدار ذرة

ولكن على مقدار احسانك الذى — عممت به تخصيص كونى بخلقتى

وما انا ممن يوهن الرد عزمه — فييأس حتى لا يلم بعودة

ولا انا ممن يخجل الطرد وجهه — فيأنف من عود مخافة طردة

على كل حال ليس لى عنك مذهب — فيصرفنى عن جعل بابك قبلتى

فما شئت فاصنع وارض عنى فاننى — أرى كل صنع منك اسباغ نعمة

كفانى اعترافى باقترافىَ توبة — وحسبى رضاً عنى قبولك توبتى

وهل انا إلا دوحة قد غرستها — فان لم يصبها وابل منك جفت

اذا حصلت لى كيف ما كان نسبة — اليك فلا اخشى ضياعا لنسبتى

فيا حيرتى كم حيرة فيك لى غدت — مخصصة بى ما به منك عمت

وكم نعمة اسبغت من سر حكمة — أثرت بها من ناطق كل ظلمتى

وأحييت منى ما أماتت جهالتى ... حياةً محالٌ أن تحال بموتتى

ومن حييت من موتةِ الجهل نفسهُ ... بعلم نجت من قطع كل منية

وكم موجة من بحر علم اثرتها ... لدىّ بريح منك أجرت سفينتى

فمرت تشق الكون حين مهبها ... ملححة حتى أفادت معيتى

وأدركت معنى آخراً دقّ فهمه ... اريد بوضع الصورة الالفية

ومن لم يحط علما بمعنى وصورة ... له فبصير العين أعمى البصيرة

فزرع ولكن لم يفد حصد حبه ... ومخض ولكن لم يفد مخض زبدة

اذا جهل الانسان تحقيق امره ... فكيف بتحقيق الامور الغريبة

فيا عجبا للمرء يجهل نفسه ... ويطمع فى فهم المعانى البعيدة

وما ناهض بالنفس يزداد رتبة ... من العلم تسميها كوان مفوت

وما موقظ من رقدة الجهل عقله ... لتحصيله تكميلها مثل ميت

اذا كملت نفس الفتى بصفاته ال ... جميلة من قول وفعل ترنمت

واصبح يدعى عالم العقل عالما ... لها وتخطت نفسه كل خطة

وبالعلم بالنفس النفيسة يدرك ال ... محصل فهم العلة الاولية

ومن لم يحط علما بذاك فانه ... وان كان حيا حكمه حكم ميت

وما الحىّ عند العقل من كان غالبا ... على نفسه حكم القوى البدنية

ولكنه من شرّفت قدره على ... بنى نوعه أوصافُ نفس زكية

ففى العالم العلوى ذا ملك وذا ... لدى العالم السفلى شيطان جنة

وما اختلفا بالنوع حتى يظن ما ... به اختلفا فعلا لخلق الغريزة

وكل أبوه آدمٌ ويخص ذا ... اذا خصّ ذا من سر معنى النبوة

ومن أعجب الاشياء فرعا أرومة ... وما اتحدا بالطبع فى الثمرية

باىٍّ لسان اوثر الشكر مثنيا عليك بما أوليتنى من فضيلة
واكملت من عقلى ووصفى وصورتى وفهمى وأحشائى وحولى وقوتى
وصفحك عنى ان عصيت تكرما ووعدك لى عن طاعتى بالمثوبة
وهل ممكن احصاء ذرّات كلما على الارض من كثبان رمل مهيلة
واحصاء مافى البحر من كل قطرة بحيث يحيط المحصى منها بعدة
وذلك أمر مستحيل وكلما اسـ تحال فمنفىٌّ لحكم الضرورة
وما كل هذا لو اتيتُ بضعفه من الشكر ادنى شكر أصغر حبة
فكيف بشكرى كل عضو وقوة جعلت انفعى عند تأليف بنيتى
وشكر التى قد حجّبت بى وانها لأظهر لى من نور شمس تبدت
بعيدة اطلال الديار قريبة وأعجب شيءٍ بُعد دار قريبة
بها مثل ما بى من هواها وعندها من الود لى ما ليس دون مودتى
وقد ادركتها رقة لى اطمعت بنيل المنى لولا مخافة وقفتى
وقلت لها منى علىّ بنظرة انال بها من حسن وجهك منيتى
ألم تعلمى ماحل بى منك من جوى وكابدت من أشجان قلب ولوعة
فان الجبال الشمّ وهى رواسخ لواحتملت بعض الذى بى لدكت
فاحزان قلبى لا تجود بسلوة واجفان عينى لا تسح بدمعة
ولولا حنينى لم تحن مطيه ولولا نواحى لم تنح وُرْق أيكة
ولولا خطابى لم يقع عين عابد علىّ لما منى الصبابة أبلت
فلا ماء الا بعض فيض مدامعى ولا نار الا دون أنفاس زفرتى
فقالت بعينى ما لقيتَ وانه ليؤلم قلبى أن تُشاك بشوكة
وانى على مافىّ من صَلَف البها لراغبة فى الوصل أعظم رغبة

ولكن وشاة السوء فيك كثيرة … ولست مع الواشين تمكن رؤيتي

وأنت فمغرى بالحسان وانني … لأكره مابى ان أرى وجه ضرتي

ومن لم يصنى صنت وجهى ببرقع … وصور فيه صورة دون صورتي

ليمتحن الخطاب لى اذ يرونها … أيلهون عنى أم يتمنون خطبتى

وما هى الا عبدة لى جميلة … تظن وما أفعالها بجميلة

فما كان الا أن رأى الناس وجهها … فهاموا بها فى فجّ وجه و وجة

ويعلم ما قد كان بالامس والذى … يكون غدا أو كائن بعد برهة

ويخبر بالأمر المغيب مثل ما … يخبّر عن ما كان منك بحضرة

ويعلم ما مفهوم معنى معبر … لسامعه عنه بوحى النبوة

وما الوحى إلا خلع نفس قوية … ملابس احساس على العقل غطت

وأنى لها نحو المحيط بذاتها … على عالم العقل الذى عنه شبت

وادراك ما يلقى اليها هناك من … اشارات رمز للعقول دقيقة

وإفهام أفهام النفوس لطائف ال … معانى التى فى ذاتها قد تهيت

وما أطرب الارواح منا لدى الفنا … سوى نغمات أدركتها قديمة

وذلك أن النفس قبل اتصالها … بتدبيرها الجسم الذى قد تولت

وعى سمعها من طيب ألحان نغمة … ينغمها الافلاك أعظم لذة

اذا اقبلت اجرامها باصطكاكها … يرجعها فى قطعها كل ذروة

وشذت لبعد العهد عنها فلم تكن … تذكرها الا بتجديد نغمة

فلما أحست بالسماع بمثلها … تذكرت العهد القديم فحنت

وحاولت التجريد عن عالم الفنا … الى العالم الباقى الذى عنه شذت

فجاذبها الجسم الزمام واقبلت … تجاذب فاهتزت لذاك برقصة

ولا شك فى ان العقول مخيلة الـ ـمسامع والابصار للحس رنت
فان لم يكن فى عالم العقل ما يرى ويسمع كانت تلك غير مفيدة
وذلك تعطيل وليس بحكمة يعطلها عماله قد أعدت
وقد يطرب الدولاب عند حنينه فكيف حنين النغمة الفلكية
وناهيك أن الطفل عند بكائه يغنى فيغشاه سكينة سكتة
ويذهل عما كان فيه من الأذى وتبدو لنا منه مخايل طربة
ولولا ادكار النفس منه لدى الغنى عهوداً قديمات لها ما أستلذت
وقد تطرب العجماء عند استماعها الـ ـغناء وتنسى عنده كل غمة
والا فما بال المطى اذا ونت عن السير هيجت فى الفلا بحدوة
فتصغى الى الحادى بأسماعها كما يكون استماع العاقل المتنصت
وتوسع مد الخطو حتى كأنها سفائن بحر مقلعات بلجة
ويرتاح بعض الطير عند سماعه تجاوب أوتار اذا هى خشت
وما ذاك الا ان افلاكها على مراكزها لما استدارت فغنت
فصارت بحكم الطبع تشتاق ما به يخصصها من دون كل مصوت
فلا تحسب الأشياء مهملة كما توهم أصحاب العقول الضعيفة
وللحوت بل للدود فى العود بل لما سوى ذاك أفلاك عليها أديرت
وفيها لها آفاق جو فسيحة عليها نراها نحن غير فسيحة
فما خص نوع لا يتم سواه من مراكز أفلاك وأوضاع هيئة
وكل له عقل يسدده إلى مقاصد أفعال وترك شديدة
وما النحل فى أوضاعها لبيوتها مسدسة من حكمة بخلية
وقد يعجز المرء المهندس وضعها بآلاته الحكمية الهندسية

وجعل لعاب العنكبوت لصيده اا ... تذرب شبا كا ليس الا لخبرة

ويفهم بعض الذر مقصود بعضه ... بقوة إدراك لنفس زكية

وحسبك الف النوع بالنوع شاهد ... بمعرفة فى طبعه مستحثة

فان ازدواج الشكل بالشكل مشعر ... بقوة تمييز وصحة فطرة

ولو لم يكن الا تفاهمها إذا ... تناغت بأصوات لها أعجمية

لكان لنا فيه دليل يدلنا ... على ان ذالا عن نفوس بليدة

فمن ظن شيأ غير هذا فانه ... لتقصيره عن فكرة مستقيمة

وقد شهد الذكر الحكيم بأنها ... مسبحة والذكر أعظم حجة

وهل يصدق التسبيح من غير عاقل ... ولكن عيون الجهل غير بصيرة

تأمل صلاة الشمس عند وقوفها ... لدى الظهر فى وسط السماء بخشية

واثباتها وقت الزوال بركعة ... واتمامها عند الغروب بسجدة

كذا جملة الأفلاك راكعة بما ... جرت سجدة لله فى كل طرفة

وما ذا الذى أعمى عيون قلوبهم ... ونورك فيهم مستطير الاشعة

لقد عظمت تلك الرزية موقعا ... لدى كل ذى عقل سليم وجلت

أرى كل ذى سكر سيصحو من الهوى ... سواى فصحوى فيك غاية سكرتى

فما اتفقت لى مذعرفتك خلوة ... بنفسى الا همت فيك بجلوة

ولا عرضت لى فى دجى الفكر هجعة ... فاغفيت الا فزت فيك بيقظة

ولا استغرقتنى فى المحاسن بهتة ... فثارت بحسن غير حسنك بهتتى

ولا سنحت فى باطن القلب خشية ... فكانت لشىء غير هجرك خشيتى

ولا خضعت نفسى لأمر تر ومه ... فكانت لشىء غير وصلك خضعتى

ولا استقبلتنى من جنابك نفحة ... أسرت حديثا عنك الا وسرت

واصغى الى تحصيله فى مسامع الـ ـمشاعر منى كل منبت شعرة
وأحسست فى نفسى بلطف دبيب ما سقت من حميا الحب لما تمشت
وهل شارب كأساً من الحب جاهل بما احدثت فى عقله حين دبت
فقد حقق الدعوى القياس وأين من كثافة جسم الخمر لطف المحبة
اذا غبت عنى كنت عندك حاضرا ومن عجب ان غيبتى فيك حضرتى
فيا باطنا القاه فى كل ظاهر ويا اولا مازال آخر فكرتى
تشابه اعلانى وسرى ومشهدى وغيبى وسترى فى هواك وشهرتى
تجمعت الاضداد فىّ ولم يكن بمستغرب لى فى الهوى كل بدعة
فنوعى فى شخصى لأنى نتيجة لشكل قياس عن ضروب عقيمة
ملأت جهاتى الست منك فانت لى محيط وأيضا أنت مركز نقطتى
فصرت اذا وجهت وجهى مصليا فرايض أوقاتى فنفسى كعبتى
فصار صيامى لى ونسكى وطاعتى ونحرى وتعريفى وحجى وعمرتى
وحولى طوافى واجب وخلاله استلامى لركنى من مناسك حجتى
وذكرى وتسبيحى وحمدى وقربتى لنفسى وتقديسى وصفو سريرتى
ولو هم منى خاطر بالتفاتة لما كان لى الا الىّ تلفتى
ولو لم أؤد الفرض منى الىّ لم يصح بوجه لى ولم تبرَ ذمتى
وكنت على أنى أوحد ظاهرا ففى باطنى قد دنت بالثنوية
كذا من يكن قد صح عقد وداده ولم يتهم يوما بسقم عقيدة
وينفى اتصال النفس بالعقل واقفا على حس مافى عالم الحس أبلت
فان قهرت فيه قوى الجسم الحقت بعالمها مملوة بالمسرة
وان قهرت فيه قوى النفس لم تصل اليه طوال الدهر يوماً بحيلة

وتبقى كما قد جاء تهوى وليتها هوت ماهوت ثم ارعوت واستقرت
ولكنها تبقى بنيران حسرة الـ بعاد تقاسى ضيق أغلال كربة
مذبذبة لا عالم العقل ادركت ولا عالم الاجسام فيه تبقت
فترجع الى إحدى الحنين حنينها الى عالم العقل الذى عنه صدت
وهيهات ان يطوى لسير حنينها اليه الذى قد حال من بعد شقة
وأنى لها والحس قد حال بينها وبين حماه أن تفوز بنظرة
اذا ذكرته هز هامس طائف من الشوق لو هز الجبال لهدت
وما ذاك بالمدنى اليه ولا الذى اذا لم يكن يدنى فريح بوقفة
أسى كلما قيل انقضت منه لوعة أعيدت بأخرى مثلها مستحثة
تزول الجبال الشم وهى مقيمة على حالة منكوسة مستمرة
وذلك أمر نسأل الله عصمة منجية منه ومن كل حيرة
ألم يك فيما نال آدم عبرة ومتعظ للعاقل المتثبت
على قربه من ربه واصطفائه ومنحته اياه أعظم منحة
وابعاده من بعد ذاك وصده وتجريعه إياه أعظم غصة
ولم يأت ذنبا عامدا غير أنه بأول حكم الله طالب رخصة
فأخطأ فى التاويل جهلا فحطه الى الارض من أعلى الجنان المنيفة
ولم يخف ما لاقى اذ انحط هابطا الى الارض من هول الامور العظيمة
وما زال يدعو الله سرا وجهرة وحاول منه العفو عنه بتوبة
وكيف بمن يأتى ذنوبا كثيرة ويقضى وما وافى بتوبة مخبت
وكم جاهل لم يزدجر بالذى جرى على آدم من فعله كل خزية
لقد شمل الخير الوجود بأسره فما كان من شر فذاك لندرة

ولم يكن المقصود بالذات إنما ... أتى بطريق الضمن والتبعية

ألم ترأن الغيث خير وانه ... ليحصل منه وكف بعض الأ كنة

وان لهيب النار للثوب محرق ... ويحصل منه نضج كل معيشة

فقد يتبع الخير الكثير الذى نرى ... لنافيهما شرّ يسير المضرة

ولو روعى الضر الذى فيهما لنا ... ولم يخلقا لاختل نظم الخليقة

وكان هلاك الحرث والنسل عاجلا ... وذاك بلا شك خراب البسيطة

ولم يك الاعالم الأمر وحده ... ولم يخف مافى ذاك من نقص خلقة

وفى الحشرات الساقطات منافع ... يحيط بها أهل العقول السليمة

ولولم تكن ماعاش من نوعنا امرؤ ... لفضل بخارات الهيولى الردية

فمن ذاك الفضل الردى تكونت ... وفى مدخل الاوساخ فى الارض حلت

وغودر ما نلقيه منا غذاؤها ... لصفو الهوى من شوب كل أذية

لتنتعش الارواح منا بطيبه ... ويصفو لنا ورد الحياة الهنية

وقد ركّب الاجسام منا وكل ما ... تركب منحلّ ولو بعد برهة

وألبس منا كل جزء بحيّز ... لأركاننا الذاتية العنصرية

وما جمعنا بعد افتراق بمعجز ... وهل آخر يخلو عن الأولية

وان معاد الشئ بعد انعدامه ... لأسهل من إنشاه إنشاء بدأة

ومطلع شمس النفس من مشرق الخلا ... سيطلعها من مغرب العدمية

سبحان من يحيى بقدرته الذى ... يميت كما أحياه أول مرّة



تنبيه

طبعنا هاتين القصيدتين (التائية والهائية) على نسخة
مخطوطة صحيحة مؤرخة بتاريخ خامس
عشر ربيع الآخر سنة ٨٨٢ هجرية
على صاحبها آلاف التسليم
والتحية

(تم)

فهرس

معارج القدس في مدارج معرفة النفس

صحيفة

صحيفة

﴿ تم الفهرس ﴾